

قصّة الطوقان

وتطوّرهما في ثلاث سمّيات قديمة
هي الآشورية البابلية والعبرانية والمسيحية
وانتقالها باللقاح إلى المدينة الإسلامية



بتسلم

اسماعيل مظهر

صاحب مجلة العصور ومحررها

الأهداء
إلى أحرار الفكر
أهدي هذا الكتاب

تصدير

أتى العلامة « ادورد كيرد » في أول كتابه المعروف عن فلسفة « كانت »
بجمل نقلها عن « كانت » نفسه تمهيداً للكلام فيه وفي فلسفته ، لم نر بداً من
ان ننقلها هنا تمهيداً للكلام في موضوع هذا الكتاب : قال :

« يمكن أن نصف هذا العصر بأنه عصر النقد . النقد الذي اضطر كل شئ إلى
الخضوع له . فالدين على عرش القداسة ، والقانون على عرش العظمة ، قد حاول
كلاهما مرات أن يفلتا من الخضوع لهذه الضرور . غير أنهما بما يحاولان في هذا
الشأن إنما يقيمان في الأذهان شكاً في ما يعضدهما من الأسس والقواعد ،
كما أنهما يعدمان بهذا ، كل ما يحبو العقل غيرهما به من الأشياء التي أثبتت قدرتها
على الثبات أمام البحث الحر » .

وليس لنا أن نزيد حرفاً على ما كتب « كانت » فان هذه الاسطر القليلة العدد
الكبيرة المعنى كافية عندى لان تكون أكبر مبرر للنحو الذي اتخذه في هذا البحث .
غير انى ارى أن التعقيب على هذا يبحث في حدود المعرفة وتقسيمها
والمبادئ التي اعتقد بصحتها في هذا الشأن ، امر ضرورى ، أقل ما فيه من الفائدة
أن يترى بعده الناقدون في مذاهبهم ، وأن يصد بعض الذين يحاولون الذهاب
بحرية الرأى في مذاهب وعرة عن غايات اعتقد بان الوصول اليها خطر مكروه .
على أن « حدود المعرفة وتقسيمها » على مقتضى كفايات العقل الانسانى ، ان
كان بحثها ضرورة الجأتنا اليها ظروف الاحوال ، فلا أقل من أن نصرح برأينا
في أن هذه الضرورة سوف تزول عما قريب ، وان الباحثين سوف يفسح امامهم
مجال القول من غير احتياج الى تمهيد والى مقدمات ، اعتقد انها كثيراً ما أثرت
في لب الموضوعات تأثيراً صرفها عن القصد ، وذهبت بها في مذاهب أنتهت عن
الغرض الأصيل الذي من أجله وضعت ، والذي من أجله اعنت في سبيلها

الكاتبون قواهم وعقولهم. وأظن أنني بلغت بهذه الكلمات غرضاً لم أجد إلى التعبير
بغيرها عنه سيلاً .

مردود المعرفة

و تقسيمها على مقتضى كفايات العقل الانساني (١)

الكفايات التي هي أظهر من غيرها أثراً في حياة الانسان العقلية ثلاث :
والظاهر أن هذه الكفايات هي الكفايات الأساسية التي تقوم عليها المعرفة
وهي :

أولاً — كفاية الاعتقاد

ثانياً — كفاية التأمل

ثالثاً — كفاية الإثبات

وعن هذه الكفايات الثلاث تنتج ثلاث صور من المعرفة . فعن كفاية
الاعتقاد ينتج الدين : وعن كفاية التأمل تنتج الفلسفة : وعن كفاية الإثبات ينتج
العلم . إذن فالدين والفلسفة والعلم ثلاثة اصطلاحات وضعت لتدل على ثلاث
صور معينة من صور المعرفة الانسانية ، بحيث يفصل بينها في الاعتبار العقلي
حدود موضوعية : ولا تجتمع الا في حيز واحد : اذ نرجع برمتها الى أنها نتائج
للعقل الانساني .

وما نعى بالعقل الانساني إلا ذلك الشيء الغامض المبهم الذي فيه من الفطرة
ومن الكسب مزيج ينتج تكويناً نسميه العقل . وما دام العقل — كما سنرى
بعد — أحد الأشياء التي نسلم بها ولو عجز العلم عن اثبات وجودها بإساليه
الموضوعية : اضطررنا الى القول بأن تعريف العقل وحده مستعص على حد

بعيد . ولكن يكفي أن نعرف من العقل أنه المصدر المكون من فطرة وكسب والذي ينتج عنه مجموعة المعرفة الانسانية .

١ — كفاية الاعتقاد ونشوء الدين

في الحياة الانسانية ظاهرة من الجائز أن تكون قد سبقت بالوجود أول مدارج الاجتماع . تلك ظاهرة الاعتقاد . فكما أن الانسان كائن اجتماعي بالطبع؛ فهو كذلك كائن معتقد بالطبع ؛ أى انه ذا عقيدة في صحة شيء وبطلان آخر .

فالحاجة ، حاجة الانسان الى الاحتفاظ بكيانه وحيائه : جره الى الموازنة بين الحالات المحيطة به ، مقودا بفطرته ، مسوقا بمقتضى غريزته ، الى الاعتقاد بصحة عدد من الحقائق المرجحة التي تخف به ظاهراتها وتحوطه نتائجها .

عاش الانسان الهمجي عيشة الفطرى الساذج في جوف الطبيعة يتلمس أوجه الحقيقة ليزيح عن عينيه وشاح الجهل والعماية التي جره الى عبادة الأوثان والعناصر ، ومضى يتأمل نواحي الطبيعة ليقع على قبس من نور الحق يحلوه به ظلمة الشك القاتل الذي يحوط بماضيه ويخف بمستقبله وينهك قواه في حاضره ، فلم يجد سوى الوهم والتخيل يحبوهما الخوف من جهل بالمستقبل فراح يضرب مع أوهامه في فلولات الفكر القصوى ، يأخذ بيده الخيال وتنجده كلما زلت قدمه في مزلق الوهم ، تصورات ما نزل بها من سلطان .

تلك حالات تطمئن اليها النفس ، ويسكن اليها العقل الفطرى ، ما دامت آتية من ناحية الفكر منتهية بالانسان الى صورة من صور الاعتقاد بصحة شيء ما ، مهما كان ذلك الشيء في ذاته باطلا .

فالانسان اذن كائن معتقد بطبعه . وما كان للانسان ان يتبدل بمعتقد معتقداً آخر ، قبل ان تصبح عنده مقدمات تسوق اليه ، وما كان له ان يثبت على معتقدين متناقضين أو متضادين تلقاء شيء بذاته ، في زمان بذاته . ذلك لان للعقل الإنسانى طبيعة لاتسع الا اعتقاداً في شيء بعينه في زمان بعينه

من هنا نقول بان الاعتقاد الفطرى فى الإنسان تكأة الدين ، كما أن الخوف والجهل منشؤه . قال المؤرخ ليكي فى كتابه « تاريخ حرية الفكر فى أوروبا » ص ١٦ جزء اول طبعة ١٩١٣ ما يلى

« نجد فى حياة الإنسان الفطرية الأولى ان الاعتقاد بالسحر كان عاماً ، بل غالب مظهر ذلك الاعتقاد مصحوباً بضروب شتى من القسوة الغاشمة . والسبب فى ذلك ظاهر . فان الفرع كان فى كل الحالات الباعث الأول على تصوير الأديان . لان الظاهرات التى كانت تباع من عقول المتوحشين ابعد مبلغ من التأثير ، ليست هى الظاهرات التى تدخل فى حيز الأشياء الطبيعية من الاسباب الموصولة بالمسببات التى تقع تحت التجربة ؛ أو تلك التى تنتج اكثر مظاهر الطبيعة عوداً بالنفع والخير على الإنسان ؛ بل هى الظاهرات المهذمة القاسية التى ترى على ظاهرها ؛ كأنها خارجة عن النسق العام . والحب والعطف اقل فى الواقع من الخوف فى النفس اثرًا . لذلك نرى أن اقل خروج فى الطبيعة على اوجه نجاسها الظاهر ؛ مدعاة الى أحداث انفعالات نفسية فى الإنسان امعن فى النيل من شعوره من ابعث مظاهر الطبيعة على الروعة الهائلة والعجاب الساذج . فاذا وقع فى عقل الهمجى من آثار الطبيعة ابلغها فى الشدة والعنى ؛ أو اذا اصابه من الامراض مهلكها ؛ أو من اخطار الطبيعة ما يؤدى به الى العدم ؛ فهناك يستمد الهمجى من تلك الحوادث اسباباً يبنى عليها اعتقاده فى الشياطين والارواح الشريرة . ففي ظلام الليل الحالك أو فى حدوث العواصف الشديدة العاتية وترديد الوديان والجبال صدى تلك الرياح المتناوذة ؛ أو فى ظهور مذنب عظيم يضىء الليل بوهجه وضياءه ؛ أو فى حدوث خسوف أو كسوف تظلم معه جوانب الطبيعة بعد اشراقها او فى وقوع قحط ذهاب بالحرث ولا يبقى النسل ؛ أو فى أى مرض يكون له تأثير ما على قوام العقلية السليمة ؛ بل فى كل ما يسوق الى شر أو ينتج ضرراً ، مبعث فى نفس الهمجى على الشعور بشئ يتخيله مما وراء الطبيعة . وهو اذ يعيش معرضاً الى

قواسر الطبيعة وأعاصيرها ، جاهلا سلسلة الاسباب التي تصل بين أطرافها المشعبة ، يقضى الهمجي عيشه في خوف مستمر ، متخيلا أن هالة من الارواح نحيط به ، وان جوا من الشر يأويه »

ذلك يدل على أن منبت الدين الاصلى اعتقاد فطرى ينزل منزلة الضرورات التي يرجع أصلها الى الغرائز ، جرت الى تشكيكه حالات أحاطت بالانسان ؛ فاختلقت نظراته في المعتقد الدينى باختلاف تلك الحالات .

٢ — كفاية التأمل ونشوء الفلسفة

إذا خرجنا من عالم الاعتقاد ولجنا عالم التأمل ؛ ويحسن بنا ان نبين هنا أن الإنسان كما هو معتقد بالطبع واجتماعى بالطبع ، هو كذلك متأمل بالطبع ؛ ولن يكون تأمل بلا اعتقاد ؛ ولا فلسفة بلا تأمل .

يبدأ الإنسان بالاعتقاد من غير أن يكون له اختيار في أن يتأمل في حقيقة ما يعتقد به . فاذا داخل الإنسان الشك في حقيقة شئ مما يعتقد به بدأ يتأمل في ما يقوم عليه اعتقاده من المقدمات وفيما يمكن انه يصح لدى العقل من النتائج التي تؤدي اليها هذه المقدمات . فاذا صح لديه من طريق ما ان الحقائق التي اعتقد بها بديا لا تلائم ما وصل به اليه التأمل ؛ أخذ من ثم يتلمس طريقاً يوفق به بين معتقده واستنتاجه ، أى بين دينه وفلسفته . غير أنه غالب ما يعز عليه أن يلغى الدين ، كما يعز عليه أن يلغى الفلسفة ، فيحاول من ثم المزج بينهما مزجاً أخرج لنا كل صور الدين العليا ؛ و كل مذاهب الفلسفة اللاهوتية التي قامت على مدى الازمان

٣ — كفاية الاثبات ونشوء العلم

من الاعتقاد ومن التأمل ممزوجين تتولد حالة ثالثة ، هي من حيث الأصل فطرية في الإنسان . على أن هذه الحالة لن تنشأ الا مع الشك ؛ فان الانسان اذا شك في معتقده ثم شك في استنتاجه التأملية ، نزع ضرورة إلا الاثبات . فاذا

كملت لديه هذه النزعة الإثباتية، نشأ مع كمالها الأسلوب العلمي في أول مدارجه -
 فإذا ندرج في طريق الإثبات نحيزت الطريقة العلمية الإثباتية على الأسلوب
 الحديث، فأصبحت عبارة عن وحي الحواس، تحديدا لها عن وحي المعتقد،
 ووحى التأمل.

وهنا يجب علينا أن نرجع إلى الفلسفة الإثباتية **Positive Philosophy**
 لنقول بأن ما وضع أو غست كونت من القواعد في تقسيمها يلائم تمام الملائمة تقسيم
 المعارف الإنسانية على حسب الكفايات العقلية في الإنسان. فإن دراسة الإدراك
 الإنساني من كل ناحيته ندلنا على وجود قانون ضروري يخضع له العقل، تتبينه
 من أثره في النظام الاجتماعي والتجارب التاريخية الثابتة

إن كل فكراتنا الأولية ومدركاتنا وكل فرع من فروع معرفتنا، لا بد من
 أن يمر بالتوالي على ثلاث حالات مختلفة. الأولى اللاهوتية وهي التصورية
 التخيلية: والثانية المتنافيزيقية الغيبية: وهي التأملية المجردة: والثالثة الإثباتية - أو
 تجاوزاً - اليقينية الواقعة. هذا هو الأساس الذي تقوم عليه الفلسفة الإثباتية أي فلسفة
 «كونت» الحديثة وعليها يقوم التقسيم الأخير الذي اعتمد عليه الباحثون في تمييز
 العلوم بمقتضى الكفايات العقلية في الإنسان. أما الحالة الإثباتية فهي التي ينشأ
 فيها العلم الصحيح.

إن من أخص ما نحتاج إليه في تحديد معنى العلم أن نظهر الفرق بين نزعة
 العلم ونزعة الدين أي الفرق بين ما تنتج نزعة الاعتقاد ونزعة الإثبات في الإنسان
 من المظاهر.

أما الدين فنزعه ذاتية - **Subjective** - محدودة في أنها تنسب أو تحاول
 أن تنسب قيمة ذاتية خاصة لحادثات الحياة وظواهرها، وهي في أهم وجوها
 عبارة عن معرفة الوجود بشكل عام مطلق مستمد من الرغبات والضرورات
 الراجعة إلى الشعور أو القلب الكامن، وإلى روح الإنسان اذ نرُد إلى النظر في

حياتها الداخلية أكثر من نظرها في عالم الطبيعة الخارجي . أما نزعة العلم فيفخر العلماء بأنها غير ذاتية بل موضوعية عامة - **Objective** -

يصل الدين الى العالم الخارجي المنظور مزوداً بمطالب يحاول من طريقها أن يخلق جواً ملائماً لمجموعة من الرغبات والانفعالات الخاصة . أما العلم فيظهر خلواً من كل شيء ولا يصل إلى العالم الا ليعرف الكون من طريق النظر الحسى في طبيعته .

يترك العلم الطبيعة حرة في أن تلقي في روع كل انسان سرها وروايتها بلغتها الخفية وبلاغتها الحقة . أما الدين فلا يرضى للطبيعة أن تتكلم بلغتها . فيضع لها لغة ، وينتجى لها أسلوباً من البلاغة مخالفاً لبلاغتها . ثم يرجع في كل الظواهر الى استيفاء أغراضه الأولية ، لا الى الترجمة عن حقائق الكون كما تُرَبِّد الطبيعة أن تلقى في روعنا .

هذه هي الحدود الموضوعة للكفايات العقلية الثلاث وما ينتج عنها من صور المعرفة . فلنحاول من ثم تحديد العلاقة الواقعة بينها .

٥ — العلاقة بين الدين والفلسفة والعلم (١)

لقد حدد الاستاذ « تيودور مرنز » هذه العلاقة لتحديداً قوياً ؛ لهذا نعتمد عليه في شرحها وبيانها - قال

« هنالك أشياء كثيرة تقوم في عقلية كل فرد من الافراد ؛ شخصية في طبيعتها ذاتية في مبعثها . ولهذه الأشياء في أنفسنا من الشأن والخطر ما لغيرها من مطالب الحياة وحاجاتها ، ومن هذه الأشياء تتكون المادة الحقيقية التي يتركب منها الفكر الخارج عن ميدان العلم . وهى في جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم الاثباتى أى أنهما طرفى تناظر . وفي هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته ان

(١) سمى البعض هذه الفلسفة بالوضعية خطأً وسميتها في بعض ما كتبت باليقينية ، ولكنى الان أفضل اصطلاح الفلسفة الاثباتية على اصطلاحى الاول . لان اليقين ولو أنه يؤدى المعنى الاسلى تماماً ، الا أنه قد يختلط لدى البعض بأنه التليم اليقيني الذى يجرى عليه أهل الدين .

يقوم بعمل ينتفع به الكثيرون على نفس الطريقة التي نحتذى في العلم. فالأخذ بالبرهان في ذلك الشطر من الفكر مستحيل والاجماع على شيء فيه لا يضم تحت لوائه الا عددا قليلا من الناس. وذلك هو الدين. »

«أما الصفة التي تلازم ذلك الشطر من الفكر فكونه فرديا ذاتياً. في حين أن العلم مهما كانت صبغته ومهما كان أصله عاما موضوعيا: أي غير ذاتي. يرجع الى الموضوع لا الى الذات التي تفكر في الموضوع وتفحص عنه. فاذ مثلت الفكر بشيء ذي طرفين متناظرين الفيت أن العلم الرياضي في أحد طرفي الفكر. وان الدين في الطرف الآخر. ونجد أن التجانس والاتفاق في الطرف الاول صفة ملازمة كالاختلاف في الطرف الثاني. تلاحظ أن وحدة الفكر صفة ثابتة في الطرف الاول، في حين أنك لن تقع لها على ظل في الطرف الثاني. ان وحدة الفكر لم تعرف في الدين ولن تعرف »

«فما بين هذين الطرفين تقع على مسافة كبيرة من الخاف تصل بينهما. ان هذه المسافة يغشاها من الفكر صورة تصل بين الطرفين فتبرز حيناً في هيكل من المعرفة وآخر في مثال من الايمان؛ فيختلط فيها قليل من الاشياء المحققة بكثير من الايمان والاعتقاد المبهم. تلك المسافة الكبيرة؛ وهذه المفازة المترامية الاطراف؛ والتي تتوارد عليها صور التغاير والاختلاف سريعة متعاقبة؛ هي سكن الفلاسفة الحقيقي، ومنبئها الاصلى. الفلاسفة التي تتناول الحقائق ولا تأنف من الايمان. الفلسفة أصل المعرفة ومنبع المعتقدات واليقين. الفلسفة حاققة الوصل بين الطرفين المتناظرين. طرف العلم الاثباتي، وطرف الدين.

٦ — استعمال اصطلاح « العلم » استعمالاً مجازياً

بعد أن قطعنا هذا الشوط من البحث يجب علينا أن نبين أن اصطلاح العلم كثيراً ما يستعمل مجازياً فيدل على المعرفة. فان الغالب عند كل من يحاول أن يعرف شيئاً من حقائق الكون أو قضايها المنطق الجدلية أو القياس أو أصول

الدين أو التشريع أو النفس أو الأدب أن يسمى هذا « علماً ». والكل معذور في أن يستعمل هذا الاصطلاح في هذا المعنى المجازى الواسع . لأن كل ما وصل إلينا من مذاهب الفلاسفة أو مبادئ العلوم أو أصول الشرائع من العالم القديم سمي علماً . ذلك لأن تقسيم المعرفة على مقتضى كفايات العقل الانساني وليد العصور الحديثة . ولهذا نجد من أصعب الأشياء أن تناقش شخصاً لم تتحيز في عقليته الفروق الموضوعية بين أقسام المعرفة على مقتضى الكفايات التي تستمد منها في تكوين العقل . ذلك لأنه يعتقد أن الدين علم ، وإن الفلسفة علم ، وإن العلم علم . في حين أن الاصطلاح الجامع لهذه الصور الثلاث هو « المعرفة » فالدين معرفة والفلسفة معرفة والعلم معرفة ، ومن مجموعها تتكون المعارف الانسانية . ولا جرم أننا من غير أن نميز بين الفروق الموضوعية بين هذه الصور ، انضرب في ليل من الفوضى حالك السواد . لهذا نحدد صور المعرفة بما يأتي :

١ — الدين **Religion** — اعتقاد **Belief** — ذاتي **Subjective**

٢ — الفلسفة **Philosophy** — تأمل **Meditation** — لا ذاتي صرف

ولا موضوعي صرف **Neither Purely subjective nor purely**

Objective. أو استنتاج **Deduction**

٣ — العلم **Science** — اثبات استقرائي تام **Perfect induction** -

موضوعي **objective** . وبين هذه الصور الثلاث يجمع اصطلاح واحد هو .

٤ المعرفة **Knowledge**

على هذا نجد أن العلم محدود تحديداً تاماً بسيطاً وكذلك الدين . فإذا لم نراع هذه الحدود ، وإذا لم نراع الدقة في استعمال هذه المصطلحات ، لم نستطع أن نحدد التفكير ، وبذلك تختلط علينا المقاصد في العلم والفلسفة والدين ، بل نعبز عن أن نحدد الأغراض التي ترمى إليها ونبالغ في تقسيم الحاجات الفكرية والمادية ، مبالغاً قد تصل إلى حد الإفراط حيناً أو التقصير حيناً آخر ، بل لا نخطئ إذا قلنا

إن كل المناقشات التي تقوم حول المباحث العقلية، تصبح خليطاً من صور الفكر، لن تؤدي الى نتيجة ولن نصل معها الى غاية. وبذلك نفسح المجال للجدل المنطقي الذي ذاعت مع ذبوعه مذاهب السفسطة في العصر اليوناني،



لا جرم أن بحثنا هذا يظل ناقصاً اذا لم نظهر الباحث على اشياء عديدة يشتبك فيها العلم مع الفلسفة اشتباكاً كبيراً. وعلى هذا نبدأ بالكلام في «الفرض» وليس غرضنا أن نحدد ما هو «الفرض» في المنطق أو ما هو «الفرض» في الفلسفة القديمة، بل نقسم الفرض الى قسمين: أولهما الفرض الضروري: وثانيهما الفرض الامكاني؛ ثم نمضي في بيان الفرض الضروري لنستطيع بذلك أن نميزه عن الفرض الامكاني. أما الفرض الضروري فهو ما يقبله العلم على ما حددناه من قبل؛ وأما الفرض الامكاني فلا مكان له إلا في عالمي الفلسفة والدين؛

٧ — تعريف الفرض الضروري

«الفرض الضروري هو عبارة عن الحكم الذي يقصر العقل على التسليم به بمقتضى ما في العقل من ألفة لانه لا يمكن الاحتفاظ به الا من طريق التسليم بذلك الفرض. في حين أن «العلم» Science يضطر إلى التسليم مع العقل بصحة ذلك الفرض ولو أنه يعجز عن اثباته بالطرق العلمية الموضوعية».

٨ — تعريف الفرض الأمكاني

«هو الفرض الذي يستوى فيه حدا الوجود والعدم؛ أو الذي يحتمل أن يكون له حقيقة موجودة؛ كما يحتمل ان لا يكون له أية حقيقة في الخارج. ومعنى هذا أن العقل اذا سلم بالفرض الامكاني أم لم يسلم؛ فانه يظل محتفظاً بآلفته كاملة، في حين أن العلم يرفض التسليم بالفروض الامكانية رفضاً باتاً تماماً؛ ما لم تثبت صحتها ثبوتاً قاطعاً بالاساليب العلمية المعروفة»

٩ - شرح المذهب في الفرض الضروري

الطريقة العلمية تقوم على وحى الحواس، ولذلك يقول الباحثون في الأسلوب العلمى «كل ما لا تثبته الحواس لا يمكن أن يكون صحيحاً»، بهذا قال سبنسر وجاراه فى ذلك الكثيرون، على أن الحواس التى يفقد الانسان بفقدانها كل ذاتية عقلية فيه، ناقصة، لا تؤدى إلينا من الإدراك إلا ما يقوم مقام الفرض الصرف فى كثير من الحالات. ولقد عدد فلاسفة العلماء حقائق كثيرة نحن مجبورون على الاعتقاد بصحتها، فى حين أن العلم يعجز عن معرفتها واثبات وجودها بطريقة الموضوعية، وإليك مثال من ذلك :

(١) وجود عالم خارج عن حيزنا

خذ مثلاً التكاثر التى تكتب عليها، كيف تعرف أنها خارجة عن حيزك وبالأحرى كيف يمكن أن تثبت عليها أنها خارجة عن حيزك؟ إنك إذا نظرت إليها أو لمستها أو وقعت تحت حسك بحال من الأحوال : فكل ما فى مستطاعتك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس كائنة فيك؛ وليست خارجة عن حيزك. لا فى لونها وصورها فحسب، بل أيضاً فى صلابتها وقوتها؛ والدليل على هذا أن فقد أعصاب البصر يمنع عينك أن تراها. وان فقد أعصاب اللمس يمنع عينك أن تحس بها. وان فقد الحواس جميعها يمنع عينك أن تدرك أنها موجودة البتة. ذلك فى حين أنه وان لم يكن فى مستطاعتك أن تعرف من وجود تلك التكاثر عليها إلا احساسات كائنة فى حيزك، إلا أن تركيب عقلك قد وضع على نظام بحملك على أن تعتقد بأنها كائنة فى حيز خارج عنك. فإذا اعتقدت بما يخالف ذلك؛ وأخذت تؤدى عملك بما يوحى إليه به اعتقادك هذا؛ كان ذلك دليلاً على أن ميزان العقل قد اختل وتفككت الفته. هذا فرض ضرورى يسلم به العقل قسراً عنه؛ ويسلم به العلم وان عجز عن اثبات وجود التكاثر فى عالم خارج عن حيز الانسان بأساليبه الموضوعية.

(ب) — فى أن وجود المادة يتوقف على وجود قوى الجذب والدفع .
 أما أن قوى الجذب والدفع حقيقتان طبيعيتان ؛ فذلك ما لا سبيل إلى إحضاره
 أو التشكك فيه . فأننا إذا أخذنا جسماً صلباً وأردنا أن نفصل بعض أجزائه
 عن بعض ، فإنه يقاوم مجرودنا . وكذلك هو يقاومنا إذا أردنا أن نضغط بعض
 أجزائه ، مثبتاً بذلك أنه إنما يتركب من دقائق تتجاذب وتتدافع فى آن واحد .
 وإلى هذه الحقيقة تعود ظاهرة التفاعل وعدم التفاعل فى العلم الطبيعى ؛ بل وفى
 أجزاء الطبيعة برمتها . ومع كل هذا فإن هذه الحقيقة تعدو الإدراك العلمى
 فى تحليل كيف أن دقيقة واحدة تجذب أخرى فى حين أنها تدفعها وتقاومها .
 وفى ذلك يقول سبنسر أننا لا نستطيع أن نأتى بقطعة من المادة يظهر فيها أن
 جزءاً يجذب آخر فى حين أنه يدفعه . ومع هذا فإن الاعتقاد بذلك الزامى ضرورى
 إذن فالتسليم بوجود قوى الجذب والدفع فرض ضرورى العقل مقصور
 على التسليم به ؛ وفى ذلك يجاريه العلم كرهاً ، ولو أنه يعجز عن إثبات وجود
 هاتين القوتين بطرقه المعروفة .

(ج) — فى بقاء القوة

أى فى حقيقة أن كمية القوة الموجودة فى السكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص .
 يقول العلامة « سبنسر » أن هذا الاعتقاد أساس كل العلوم الحديثة . وأنه النبع
 الفاضل الذى نستمد منه العلم بكل النواميس الطبيعية . يقول : أن كل النواميس
 الطبيعية الأخرى ليست سوى نوابع تعود إلى هذه الحقيقة العظمى . وكل الاستقراء
 العلمى « يفرض » أن القوة ثابتة . لأنها إذا لم تكن كذلك أصبحت أدوات
 قياس الأبعاد التى هى فى ذاتها عبارة عن قياس القوة الجاذبة ، وكل أدواتنا
 الأخرى التى نحقق بها استنتاجاتنا العلمية تتغارب بين يوم وآخر ، أو بين ساعة
 وأخرى . وبذلك تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . لذلك كان مبدأ بقاء
 القوة — ولولم نستطع أن نثبتته علمياً — اعتقاداً الزامياً ضرورياً . والعلامة سبنسر

معتقد أن هذا « الفرض » وان كان أساس العلم الطبيعي ، إلا أن « العلم » يعجز عن ادراكه وإثبات وجوده بطريقة المعروفة التي تعتمد على الحواس . وهذا مثال حق يثبت قاعدة أن كثيرا مما لا يمكن أن يدركه العلم الطبيعي ، يجب أن يعتقد بوجوده . اذ لو لا هذا الامر لتخلل ذلك الهيكل النظامي الذي ترتكز عليه معرفتنا .

هذه أمثال ثلاثة . وفي استطاعتنا أن نأثي بأمثال أخرى . فالعقل ووجوده في ذوات غير ذواتنا لا يمكن اثباته بالطرق العلمية ، وكذلك الاثر والاعتقاد بتفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملاذ ، والاعتقاد بوجود السببية العلمية . كل هذه الاشياء تقسر على الاعتقاد بوجودها عقلا باعتبارها فروضا ضرورية في حين أن العلم يجاري العقل فيها ولا ينكرها عليه ، بل هو مضطر إلى اتخاذها قاعدة يبنى عليها ولو أنه يعجز عن اثبات وجودها بالاسلوب العلمي هذا هو الفرض الضروري . فانه حاول من ثم في تطبيقه على بعض الاشياء التي تقوم عليها معرفتنا لنعرف الفرق بينه وبين الفرض الامكاني ، ولنجعل الفكرة في وجود الله محورا يدور من حوله البحث .

١٠ — الاعتقاد بوجود الله فرض ضروري

يعتقد كثير من أصحاب العقول الراجحة في هذا الزمان أنه ليس في الفلسفة من شيء هو أبعد عن ألفة العقل من تلك الفكرة التي يطاق عليها اصطلاح « الناسوتية » — انثروبومورفزم — Anthropomorphism أي الفكرة القائلة بتزويد الله بشيء من الخصائص الانسانية . على أن الاعتقاد بأن الخالق مكون على حسب نماذجنا العقلية ، أو أنه صوره من صور الفكر الانساني ، هو الاعتقاد فيه من الباطل بقدر ما في القول بأن الارض مركز النظام الشمسي ، وان الانسان محور العالم . وعلى الرغم مما في هذا النقد من الصحة ومطابقة الواقع ، فإن محاولة الاعتقاد بأن علة الكون من الممكن إدراكها بما يبعد عن

ادراك ذواتنا ، أمر بعيد عن الامكان بحكم الطبيعة ، بل قول هراء لا أثر له من الحقيقة .

خذ لذلك مثلاً « اسينوزا » فانه أبعد الفلاسفة عن الاعتقاد بأن الخالق مكون على نموذج عقله ، وقد مضى في فلسفته متخيلاً أنه اجتاز هذه العقبة الكئود ، بأن جعل الخالق عبارة عن « امتداد وفكر » ، غير أن دكتور « مارتينو » قد نقض هذه الفكرة متسائلاً :

« من أين أتى لاسينوزا فكرة « الامتداد » الا من النظر في حالات جسمه الطبيعية، ومن أين أتى له أن الله « فكر » إلا من النظر في حالات عقله؟ — ذلك لان الامتداد والفكر ليسا سوى شيئين هما اخص ما تتصف به الاجسام والعقول وكذلك سبنسر. فانك — إن نظرت في فكرته في الله — لم تجد أنه نخطى الحد الذي وصله « سينوزا » فكما أن الخالق عند سينوزا لم يكن إلا شبحاً إنسانياً اتمثله حالا في مكان — امتداد وفكر — كذلك كان الخالق عند سبنسر عبارة عن تمثّل صرف لفكرة غير معينة هي فكرة « القوة » وهي فكرة مستمدة من أخط الخصائص الانسانية ، خاصية إدراك الحس ، إذ قال بأن الخالق « قوة خفية » تدبر الكون .

وأنت مهما قلبت وجوه الرأي وأنعمت النظر فانك تجد دائماً أن فكرة القوة كما ثبت من قبل ، مستمدة من قسم من ذاتيتنا ، أى من ادراك الحس . إذن نجد أن سبنسر بدلاً من أن يجعل الخالق بعيداً جهداً البعد عن الذاتية البشرية كما كان يعتقد ، إذ انه يتمثله على نموذج مستمد من أخط خصائص الانسان . على أنه بعد أن حمل على « الناسوتية » لأنها تزود الله بأرقى الخصائص الانسانية ، مستقلاً ذلك في جانب الله ، رجع فزلت قدمه فيما زلت فيه قدم غيره من الفلاسفة، فزود الخالق بخصائص مستمدة من أخط الصفات التي يشارك فيها الانسان أدنى الحيوانات بدلاً من أن يتركه مزوداً بأرقى الخصائص الانسانية .

ومن الجلى بعدهذا أننا في كل المباحث التي تتعاق بالنظر في أصل الاشياء لايجب مطلقاً أن نتسأل عما إذا كنا نصور «علة الكون» على نسق مستمد من ذاتيتنا . لان تصور العلة على نسق الذاتية البشرية أمر لايمكن أن تنصرف عنه ذات انسانية فانية . بل الواجب أن تتساول دائماً عما إذا كنا نصورها على نسق مستمد من نظريات سطحية : أم نصورها على نموذج مرجعه الوسعة في النظر : والآلفة التامة الموافقة لنظام العقل الانساني .

أما وقد أظهرنا أننا لانستطيع أن ندرك من علة الكون إلا نموذجاً يرجع تصويره إلى تجاربنا الذاتية ، فانه يكون من الجلى أن اعتقادنا في وجود إرادة عاقلة أي علة خالقة ، أو عدم اعتقادنا ، يرجع إلى ما ندرك من فكرة السببية . ومادام فهمنا للسببية عائداً إلى ما ندرك منها حسب تجاربنا العلية ، أي أنها تنحصر في القياس على السوابق الطبيعية الظاهرة أجلى ظهور ، فمن الواضح أننا لانرضى في عقليتنا فكرة التسلسل السببي إلا بالاعتقاد في أن الأشياء لا بد من أن تكون قد نشأ بعضها عن بعض متدرجة في سلسلة منظومة خلال «الزمان» وهذا أمر يلزمنا إلزام «الفرض الضروري» بوجود إرادة عاقلة مخبوءة وراء عالم الظواهر الطبيعية : ظلت مؤثرة في الماضي والحاضر ، وستظل كذلك في المستقبل .

غير اننا إذا اعتقدنا بأن السببية الحقيقية تشمل في مدلولها فكرة «الارادة» فمن الظاهر اننا إذا أردنا أن نحفظ بألفة العقل البشري ، تلك الآلفة الصحيحة التي لا يمكن أن نتخذ غيرها دعامة للبحث وراء الحقيقة : ، فمن المحتوم علينا أن نعتقد في إرادة عاقلة حرة تتخذها علة للأشياء ؛ أو بعبارة أخرى ، أن نعتقد في خالق . وعلى ذلك نلزم القول بأنه كما يكون رأينا في السببية . كذلك يكون معتقدنا في الدين .

أما إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة جلية واضحة في بحثنا هذا ، فيجب أن نظهر أولاً أن العلة الوحيدة التي في استطاعتنا أن نتناولها بمعرفة يقينية وبحث ، اختباري هي ارادتنا الذاتية ، وقدرتها على تحريك أعضاء الجسم ؛ والأجسام التي تقع تحت سلطانها . وما فعل الإرادة الانسانية في الواقع إلا الانتقال من حركة عقلية إلى فعل طبيعي . أي الانتقال من العقل إلى المادة . وما دامت معرفتنا للسببية من طريق الاختبار مقصورة على ذلك ، فمن الظاهر الجلي إذن ؛ اننا إذا تركنا وبداهتنا الفطرية لزمنا أن نعود بالكون ، كما فعلت كل الأديان ؛ إلى فعل عقل عظيم نعرفه باسم باري الأشياء . فاذا ما فعلنا ذلك نكون قد حفظنا على العقل البشري تلك الألفة التي يتطلبها الاعتقاد الصحيح .

ان هذه النتيجة ؛ على ما فيها من السذاجة وقربها من أحكام العقل الأولية . لا يتركها العلم من غير أن يتحداها بساطانه . يتدخل العلم في هذه النتيجة ويهمس في الضمائر والعقول بأن تلك الحركة العقلية التي نسميها الإرادة ليست إذا ما بحثت من أساسها سببية حقيقية ؛ ولا تزيد عن كونها ظاهرة عقلية أو عرضاً من أعراض سببية حقيقية . وما تلك السببية الحقيقية لدى العلم إلا تلك الاهتزازات التي تتناول نشاط دقائق المخ ومراكز الحس العصبية . وعلى ذلك يكون مضمون السببية الصحيحة عند العلم ليس الانتقال من الحركة العقلية إلى الفعل الطبيعي بل الانتقال من سابقة طبيعية إلى لاحقة طبيعية . أي من مقدمة طبيعية إلى نتيجة طبيعية . ولا تتعدى مطلقاً حكم السنن التي تتصرف فيها وتتجها .

يقول العلم إن الحركة العقلية التي ندعوها الإرادة ليست سوى عرضاً يلزم اهتزازات دقائق المخ المادية وليس لها من أثر في أحداث الأفعال أكثر من أي عرض آخر .

فاذا كانت نظريتنا في الكون ؛ ليست سوى استعراض صرف للنظريات التي تخلقها عقولنا ، وإذا كان تكوين عقولنا يدل على أن الارادة ليست السببية الحقيقية وانها ليست إلا عرضاً من أعراض السببية الحقيقية فظاهر أن الاعتقاد في عقل مدبر أو إرادة ترد إليها العلة في وجود الكون . يتحطم على صخور العقل البشرى ويتفرق بددا وتحل محله عندنا تلك النظرة المادية الضيقة التي تسوقنا إلى القول بأنه ليس في العالم إلا سلاسل من السوابق الطبيعية ونتائج متلاحقة تتبع إحداها الأخرى على تنالي الأحقاب وخلال تواتر الزمان ؛ كما كانت ، وكما هي كائنة ، وكما ستكون .

على اننا إذا أردنا أن نرد على القائلين بالسببية العلمية وكفايتها لتعليل كل ما في الكون والحياة؛ فليس من قصدنا أن ندفع براهينهم برهاناً ببرهان . ولكن قصدنا ينحصر في أن نظهر أنهم إنما ينظرون في العالم من بين أقدامهم نظرة ضيقة؛ يتبدلون معها من ألفة العقل والحقيقة التي في مستطاع العقل أن يدركها؛ بعماء صرف لا نظير له من شيء في هذا الوجود إلا عماء المادة الجامدة .

ينصرف الناس في كل ما يتناولونه بالكلام والبحث وهم على شعور تام بأن كل واحد منهم إنما يملك شيئاً يقال له القوة المدركة . وأن لهم شيئاً يقال له حس الجمال والموسيقى وما إليهما من الخصائص كما أنهم يملكون ذلك الشيء المبهم الذي يسمونه الارادة . فاذا سقت ابجاثك مقتنعاً بأن الارادة ليس لها من وجود حقيقي ؛ وانها ليست سوى عرض من أعراض اهتزازات دقائق المنح ، لم يبق أمامك من شيء آخر إلا أن تنكر مع انكارك الارادة كل وجود حقيقي لكل الخصائص العقلية التي للانسان . وعلى نفس الحجج التي يستند إليها الماديون في انكار الارادة ، نستطيع أن نستند في انكار كل القوي المدركة والملكات الأخرى .

نستطيع أن نقول مثلاً بأن القوي المدركة برمتها انما هي عرض لاهتزازات
دقائق ما في مادة المخ . وبذلك لا يكون لها وجود حقيقي البتة . وكذلك الحال
إذا نظرت في الجمال . يمكنك أن تعتبره كمجرد وهم أو خيال ، وليس بحقيقة ثابتة
خالدة . تستطيع أن تقول ان الجمال عبارة عن مجرد تنسيق للمادة في صور معينة
لا يلبث أن يزول أثره إذا نظرت فيه من عدسة المجهر . وهكذا الموسيقى .
في قدرتك أن تدعى أنها عبارة عن مجرد اهتزازات مادية . وليس لها وجود
حقيقي . وكذلك إذا نظرت من تلك الناحية في حب العظمة والشجاعة والفضيلة
والشرف ومضاداتها من حب الذات والملاذو السقوط الأدبي فإنه في مستطاعك
أن تعتبرها حركات خلایا خاصة توجهت وجهاً معيناً؛ لا أقل من هذا ولا أكثر .
فاذا عمدت إلى النظر في العالم كما ينظر فيه الماديون مولياً بوجهك عن
خصائص الانسان العقلية وأكبت على تقديس ما تركز عليه هذه الخصائص
من القوى والمواد الطبيعية وحدها ؛ فانك لا تقتل بذلك الإرادة وحدها
كوجود حقيقي ، بل انك تقضي على الشعر والموسيقى والحقيقة وعلى كل
المراتب والفروق الكائنة في العقل بين منازل الفكر والعواطف .

وعلى الجملة تقضي على كل قضايا العقل الانساني . ولا تترك في الكون من
شيء إلا كتلة مواتاً وصحراء مجدبة من المادة والحركة . ولما كانت المادة والحركة
لا يمكن ادراكهما إلا من طريق الحواس ، ففي مستطاعك أيضاً أن تنكرهما .
إذا لا يكون لديك من سبب يملك على أن تعتقد أن العالم مكون على النموذج
الذي توحى اليك به الحواس .

الى هذا الحد من التهوش والفوضى يكون النظام العالمي في نظرك إذا تطالعت
فيه من هذه الوجهة المادية الصرفة . ومن الظاهر الجلي اننا اذا أردنا أن نرد على
العالم نظامه وألفته على مقتضى ما في العقل الانساني من نظام وألفة فان مز
الواجب أن لا ننظر فيما يمكن أن يثبت أو ينفي نظرياً، بل ننظر فيما يمكن الاعتقاد

به عملياً . هذا مع علمنا بأن هذه الألفة سواء أكانت مبنية على وجهة النظر المادية أم وجهة النظر الروحية ، فإنها أقصى ما يمكن أن نبأخ من صلة بالحق في هذه الحياة .

والمثال : انى مضطر لان أعتقد بوجود عالم خارج عن حيزى لاأأخذ اعتقادى هذا دعامة حقة وأساساً ركيزاً فى سبيل بحثى عن الحقيقة . ذلك على الرغم من أن الفلاسفة قد ينكرون أن للعالم الخارجى وجوداً حقيقياً فى ذاته . كذلك أعتقد أن هنالك فرقاً قائماً بين الفضيلة والرذيلة . وبين سمو المدارك الروحية والشهوات . وبين الانانية والتضحية . وبين الذاتية والغيرية . ولو أن الماديين إذ يرجعون بهذه المعانى بلا تفريق بينها الى اهتزازات دقائق غير مختلفة أى اختلاف إنما يلزمون أنفسهم الحجة بحكم العقل : بأن هذه المعانى لا يختلف بعضها عن بعض اختلافاً حقيقياً .

أرأى أعتقد بوجود حقيقى للذكاء والادراك والجمال والموسيقى والشعر والحقيقة ، ولو أن هذه أيضاً يمكن ردها الى مجرد حركة بعض خلايا لا ادراك ولا ذكاء فيها والى قوات لا تعدو تلك الخلايا ادراكاً ولا تبزها معرفة وذكاء . وعلى هذا النحو أرأى مضطراً الى الاعتقاد بوجود حقيقى . اسما نسميه « الارادة » ولو أن الماديين قانعون بأنها ليست سوى عرضاً يصاحب حركة الدقائق فى المراكز العصبية .

فاذا كانت ألفة العقل البشرى تتطلب سبباً للعالم المرئى واذا كل ما فى مستطاع اختبارى أن يصل من علم بالسبب الأول ينحصر فى الفعل العقلى للارادة التى أشعر وأحس بها ؛ فمن الواضح الجلى انى مقسور بضرورة ألفة عقلى ومقتضياته على الاعتقاد بأن هذا الكون العظيم معلول لارادة عاقلة أى الى خالق . وليس من معنى ذلك انى أعرف أو أعلم أن للخالق وجوداً حقيقياً ، أكثر مما أعلم أو أعرف أن للعالم الخارجى المحيط بى وجوداً حقيقياً . انما كل

ما أعلم أو أعرف اني جئلت على أنتي لا أستطيع أن أردد على عقله وأحتفظ بنظامه، الا اذا اعتقدت بوجود خالق ذي ارادة حرة عاقلة . والا فان كل معتقداتي الثابتة تنهار وتتحطم ويطمو على سبيل الحيرة والفوضى .

ولست أجد من ضرورة تقضى على بأن أظهر كيف أن عقلا أو ارادة تكون علة للعالم ؛ كما أنى لست أعلم كيف أن دققة من المادة تجذب أخرى في حين أنها تدفعها . ومع ذلك فاني مقسور على الاعتقاد بسببية الجذب والدفع ؛ كما أنه ليس في مستطاعى أن أعرف كيف يتحد العقل مع مادة المخ ومع نشاط دقائقه وحركتها . وليس لذلك من علاقة لاتصال العلة بمعلوها أو السبب بالمسبب بالمعنى العلمى ، لأن ذلك يتطلب الموازنة بين الاصطلاحين ؛ ولا يمكن أن نضع موازنة بين ذلك الشئ الغامض المبهم الذي نسميه العقل ؛ وبين القوة ومادقا المخ مثلا . ويكفي لذي أنى يجب أن أعتقد بحقيقة العلاقة الكائنة بينهما .

فلست أعرف مثلا كيف أن ارادتي تكون سبباً دافعاً على أحداث حركاتي البدنية . ولكن يكفى عندي أن أعتقد في حقيقة أن ارادتي تدفعنى على القيام بحركاتي الجسمانية . وعلى هذا السنن ، وعلى هذه القاعدة ذاتها ؛ يكفى عندي أن ألزم بالاعتقاد بوجود خالق ، من غير أن أجد نفسى مضطراً لأن أظهر كيف انه السبب في وجود الاشياء ؛ وكيف أنه علتها ؟ وفضلا عن كل هذا فان السكون المادي اذ يقتصر وجوده لدينا على تكوين عقولنا ؛ فليس من الضروري أن أجعل المادة موضع اهتمامى في بحثي وراء الحقيقة ، بل اوجه كل همى نحو ذلك الشئ الذى لا يكون للمادة عندي من وجود الا به . أى العقل .

على هذا نجد أن الاعتقاد بوجود الله أو خالق أو مصدر للاشياء او علة لها او ما شئت فقل ، فرض ضرورى يقوم على حاجات العقل ومقتضياته . وعلى هذا الفرض الضرورى قس كل بقية الفروض التى لا يمكن للعقل ان يحتفظ

بألفته من غير ان يسلم بها ، ولا يمكن للعلم ان يتفهمها ، ولو عجز عن اثبات وجودها بأساليبه الموضوعه .

١١ - ما بعد الفرض الضروري فرض امكاني

عرفنا الفرض الامكاني بأنه الفرض الذي يستوى فيه حدي الوجود والعدم ؛ او الذي يحتمل ان يكون له حقيقة موجودة ؛ كما يحتمل ان لا يكون له أية حقيقة في الخارج . وذكرنا ان معنى هذا ان العقل اذا سلم بالفرض الامكاني ام لم يسلم ، فانه يظل محتفظا بألفته كاملة . في حين ان العلم يرفض التسليم بالفروض الامكانية رفضاً باتاً صريحاً ما لم تثبت صحتها ثبوتاً قاطعاً بالأساليب العلمية المعروفة . وعلى مقتضى التحديد والشرح الذي حددنا به الفرض الضروري يمكن أن نتخذ هذا التحديد قياساً نقيس عليه في التفريق بين الفرض الضروري والفرض الامكاني .

اذا استطعنا ان نعى هذه المبادئ فلا جرم اننا نستطيع ان نحدد المعقولات تحديداً يجعلها اكثر خضوعاً لأحكام العقل وكفاياته وخرجنا من ظلمات الجدل الى وضوح الطريق العقلي الصرف نمتع بشمراته ونتخذة قاعدة نبنى عليها صرح العلم ونشيد من فوقه بناء الفاسفة والآداب .

وبعد : فهذا تصدير رأينا من الضروري ان يستوعبه كل قارئ قبل ان يمضي في قراءة هذا الكتاب



قصة الطوفان وتطورها

يعتقد كل الذين درسوا العبرانيات القديمة ، وكل من أكب على تحليل سفر التكوين — وهو السفر الأول من توراة موسى (١) — أن القصص التي يتضمنها إنما ترجع في أصلها الى أسطورتين قديمتين تخالفتا وتمازجتا مع الزمان وعلى تنالى العصور ؛ فتكون منها سفر التكوين الموسوى ، الذى يظهر لنا كيف خلق العالم ؛ وكيف خلق آدم ؛ ثم كيف طرد ، ثم تكاثر نسله ، ثم أغرقه الطوفان في زمان نوح ؛ ثم تكاثر ثانية من بعد ذلك .

وإذا قرأت بقية أسفار موسى ؛ وبالأحرى الأسفار المنسوبة اليه ؛ — خروج ، لاويين ، عدد ، تثنية — تجد أنها مزيج من أخبار تاريخية تكثر فيها الأقايص ومواعظ هى بين الأخلاقيات والارشاديات . وفي جماع هذه الأسفار لا تقع على شئ من انسجام الوضع ، ولا من دقة التاريخ ، ومن كل هذه الأشياء ، يذهب دارسو العبرانيات والآثار في سلسلة طويلة من الأبحاث ، يستنتجون منها في النهاية أن هذه الأقايص جمع وتوليف من أقايص وروايات أبعد منها زماناً ، وأغرق قدماً .

يقول المستر ديكسون وايت :

« من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية ، التي تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت في العصور الوسطى ، نقش يمتاز بالتعبير عن مذهب لاهوتى في

١ - يعتقد كثير من الباحثين أن موسى لم يكتب التوراة بل أنها منحوالة عليه منسوبة إليه فقط وآخر رأى ظهر في هذا الامر للاستاذ جبر دومط إذ ينسب الى يوسف السديق أنه كتب سفر التكوين

أصل الكون . ظل موضع الاحترام والاحلال أزمانا طويلا .
 الواحد القهار : في صورة بشرية ، جالس بوداعة ولين ، يصنع الشمس
 والقمر والكواكب ، ويعلقها في القبة الصلبة التي تحمل من فوقها « السماوات
 العلا » . وتظلل « الأرض السفلى » .

« أما علائم التفكير الظاهرة في تقطب جبينه فتتم على أنه أجهد نفسه
 إمعاناً في التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد
 اضطر الى أن يكبد وينصب . ومن الطبيعي أن يكون المثالون والمصورون
 خلال القرون الوسطى - وفي بدء العصور الحديثة - قد عمدوا الى تمثيله على
 مقتضى ما تصوره كتاب ذلك العصر ، اذ كانوا يقولون بأنه استراح في اليوم
 السابع : واضطجع في هدأة ، مصغياً الى تراتيل الشاء التي زفتها إليه سكان
 السماء » .

« من حول هذه الأفكار العتيقة التي فاضت بها الكاتدرائيات ، وفي
 غيرها من الآراء التي عبرت عنها النقوش والصور وتلوين الزجاج وزخارف
 الفسيفساء والحفر خلال القرون الوسطى ، وقرنين فرطاً من بعد تلك
 العصور : تكشف نواة من الاعتقاد كانت قد أخذت تتكون خلال ألوف
 من السنين ، ومضت محتكمة في كل ما أبرز العقل الانساني من صور الفكر
 حتى عصرنا هذا » .

أما بدايات ذلك الاعتقاد فترجع الى أعرق عصور التاريخ قدماً ، فانتا
 نجدها في أوليات كل مدينة من المدينيات العظمى ، بيد أنها شغلت في كل
 الكتب المقدسة التي ذاعت في نواحي العالم . على تعددها وكثرتها ؛ مكاناً
 علياً . ففي كل المدينيات تقع على فكرة وجود خالق ، ليس الانسان إلا صورة
 منه غير كاملة ، وأنه خالق الكون المنظور بطريقة مباشرة مستخدماً في الخلق
 يديه وأصابعه » .

« من بين تلك النظريات عدد غير صغير مضى محتكماً في اللاهوت الكلداني ، ومن الواجب أن نخصه بشيء من العناية والتقدير . فان النقوش الآشورية التي استكشفت حديثاً ؛ ونقلها الى العالم الانجليزى أعلام من أمثال لا يارد وجورج سميث وسايس وغيرهم ؛ لترينا أنه قد تغلغلت في تضاعيف الأديان الكلدانية والبابلية قصة في حقيقة الخلق من أهم مزاياها وأخطر وقائعها ، انها لا بد من أن تكون النواة التي فرخت منها تلك القصص التي نقع عليها في كتبنا المقدسة . ولقد ظهر بأجلى بيان أن تلك الأفكار التي تشغل أعلا مكانة في أسفار العبرانيين ، قد استمدت من ذلك النبع الذي فاض على المدنات الكلدانية البابلية والآشورية والفينيقية بتلك القصص التي وضعت في حقيقة خلق العالم . ففي تينك القصتين اللتين تخالطتا في سفر التكوين ، وفي تلك الرواية التي يمكن أن يستدل عليها بأشياء في سفر «أيوب» (Job) يتمثل لك بكل ما يستطيع أن تتخيل من العظمة والقدرة ، نفس ذلك التصور في حقيقة الخالق والخلق ، وهو تصور خالق بالمدينة إذ هي بعد في مهد طفولتها وغرارتها ، فيبرز لك الخالق في صورة بشرية مكبرة ، وهو يكد في العمل بأطرافه ويمثل لك الخلق « مصنوعاً بيده » . ولقد نشأ ، تعقياً على هذا التصور ، اعتقاد في الخالق على أنه شخص بعد أن « قذف من راحة يده الى الفضاء بكل السيارات لتجوب أنحاء المكان » جلس في العلاء فوق العرش المستقر « على فلك السماء » جاداً أبداً في أن يحكم سيرها ويهديها طريقها » وبعد أن يستطرد العلامة « وايت » في وصف كيفية الخلق والمادة التي خلق منها يعود الى الكلام في الخلاف على الزمان الذي خلق فيه العالم فيقول :—

« إن سائلة الجهود الطويلة التي بذلها رجال خصوا بأوسع المدارك وارجح الأحلام من إيوسيبيوس الى يوشع ؛ في سبيل تحديد التاريخ الذي

وقع فيه الخلق ، قد تركت الكلام فيه لفصل آخر (١) ويكفي هنا أن نذكر أن النتيجة الأخيرة التي وصلت اليها الأغلبية العظمى ممن يعتبرون من أقدر الذين أكبوا على درس الأقوال التي جاءت في الكتاب المقدس ، قد أسلمت الى القول بأن الخلق قد وقع في زمان تعد سنوه بعدد عشرى ؛ ويقع حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م . وفى القرن السابع عشر ذكر الدكتور « جون ليتفوت » وكيل جامعة كمبردج ومن أشهر من نبغ من درسوا العبرانيات ، ان نتيجة أبحاثه القصية المستفيضة فى التوراة والانجيل ؛ قد أدت به الى حقيقة أن « السماء والأرض ، والمحيط والمركز ؛ قد خلقن معاً ؛ وفى وقت واحد ، حيث كان الغمام الكثيف مملوء بالماء ، وأن هذا العمل قد وقع ؛ وأن الانسان قد خلق بقدرة الثالوث الأقدس ؛ فى ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، حيث كانت الساعة التاسعة من الصباح » .

« وكان هذا انتصار لأسلوب « لاكتاتايوس » وهو نتيجة الدرس العميق فى الانجيل والتوراة مئات من السنين ، وغاية لجهد الفكرة اللاهوتية منذ أن ظهر « بيده » فى القرن الثامن الى زمان « فنسنت بوفيه » حيث أعلن فى القرن الثالث عشر أن الخلق لا بد من أن يكون قد وقع فى فصل الربيع . لكن وأسفاه ! فانه لم يمض قرنان على ما بذل دكتور « ليتفوت » من جهد فى درس العبارات المنزلة ليستخلص منها حقائق يحدد بها ساعة الخلق وتاريخه ؛ حتى استكشف الباحثون أنه فى تلك الساعة التى حددها هذا اللاهوتى ، كانت أمة من أرقى الأمم مدنية وأمثلن تهديباً ؛ رافلة فى أبهى حلة خلعتها الحضارات على الأمم فى الأزمان القديمة ، بل كانت منذ عهد عهد ؛ تجوب أنحاء العواصم المشيدة فى مصر على ضفاف النيل ، وأن أماً أخرى لا تكاد

تقل عن هذه مدنية وعلماً ؛ قد بلغت درجة خطيرة من النشوء والارتقاء تحت
سماء آسيا .

هذا ماخص أولى من رأى الباحثين فى أصل الروايات المقدسة . على أن
علم مقارنة الأديان قد زودنا بالكثير من دقائق الشبه الواقعة بين كثير من
الروايات المتناثرة فى الكتب الدينية . لهذا نعلم الى المقارنة بين الروايات
الثلاث التى نعث عليها فى القرآن والتوراة والواح بابل وأشور خاصة بسيرة
نوح لنستخلص من هذه المقارنة قاعدة نبى عليها حكماً صحيحاً فى أصل هذه
الروايات ومنشئها . ويحسن بنا ان ننقل هذه الروايات كما اثبتت فى القرآن
والتوراة ؛ ونترجم ما يختص بها فى الواح بابل ثم نمضى بعد ذلك فى المقارنة
العلمية .

الطوفان فى القرآن

١ / ولقد ارسلنا نوحاً إلى قومه انى لكم نذير مبين . ان لا تعبدوا إلا الله .
انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم . فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نريك
إلا بشراً مثلنا وما نريك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادی الرأى وما نرى لكم
علينا من فضل بل انظنكم كاذبين . قال يا قوم اراى يتم إن كنت على بينة من ربى
وآتىنى رحمة من عنده فعميت عليكم انزل مكموها وانتم لها كارهون . ويا قوم
لا أسألكم عليه مالا إن اجري إلا على الله وما انا بطارد الذين آمنوا إنهم
ملاقوا ربهم ولكنى اراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن
طردتهم افلا تدكرون . ولا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا
اقول انى ملك ولا اقول للذين تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله اعلم

بما في انفسهم انى إذن لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالنا
 فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنمسا يأتكم به الله إن شاء وما اتم
 بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إن اردت ان انصح لكم إن كان الله يريد ان
 يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون . ام يقولون افترية قل إن افتريته فعلى
 إجرامى وانا برىء مما تجرمون . وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا
 من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا
 تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من
 قومه سخروا منه . قال إن تسخروا منا فانا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كما تسخرون . فسوف
 تعلمون من يأتية عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا
 وفار الثنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه
 القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها
 ومرسيها إن ربي لغفور رحيم . وهى تجري بهم فى موج كالجبال ونادى
 نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال
 سأوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله إلا من رحم
 وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا ارض ابلعى ماءك وياسماء
 اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم
 الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت
 احكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من اهلك انه عمل غير صالح . فلا تسئلن
 ما ليس لك به علم إني اعظك ان تكون من الجاهلين . قال رب إني اعوذ بك
 ان اسئلك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين . قيل
 يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سنمتعهم
 ثم يمسهم منا عذاب اليم . تلك من انباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها
 انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين

إنا أرسلنا نوحاً الى قومه ان انذر قومك من قبل ان ياتيهم عذاب اليم
قال يا قوم انى لكم نذير مبين . ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون . يغفر لكم من
ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون
قال رب انى دعوت قومي ليلا ونهاراً . فلم يزداهم دعائى إلا فراراً . وانى كلما
دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصرروا
واستكبروا استكباراً . ثم انى دعوتهم جهاراً . ثم انى اعلنت لهم واسررت لهم
اسراراً . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً
ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً . ما لكم لا ترجون
لله وقاراً وقد خلقكم اطواراً . الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا
وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض
نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطاً .
لتسلكوا منها سبلا فجاجا . قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد
ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا
تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ولا
تزد الظالمين إلا ضلالا . بما خطيئتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون
الله أنصاراً . وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك
إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لى ولوالدى
ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً .

« نوح »

« ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً
فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية
للعالمين . »

« العنكبوت »

« كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد » « ص »
 « إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن
 واعية » « الحاقة »

« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا
 ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنأ أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض
 عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري
 بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان
 عذابى ونذر » « القمر »

الطوفان فى التوراة

عن سفر التكوين

الاصحاح السادس

وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء
 الله رأوا بنات الناس انهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا
 فقال الرب لا يدين روحى فى الانسان الى الأبد ؛ لزيغانه هو بشر وتكون
 أيامه مائة وعشرين سنة . كان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام . وبعد ذلك
 أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم
 الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم .

ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر فى الأرض . وأن كل تصور
 أفكار قلبه وإنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب انه عمل الانسان فى الأرض .
 وتأسف فى قلبه . فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الانسان الذى خلقته .
 الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لأنى حزنت أنى عملتهم . وأما
 نوح فوجد نعمة فى عيني الرب .

هذه مواليد نوح : كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله . وسار نوح مع الله . وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافت . وفسدت الأرض أمام الله وامتلاّت الأرض ظلماً . ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلاّت ظلماً منهم . فيها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه . ثلث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع كواكباً للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق . وتصنع باب الفلك في جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعالية تجعله . فيها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حيوة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدي معك . فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك . ومن كل حي من كل ذى جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً وأنثى . من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها . اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها . وأنت نخذ لنفسك من كل طعام يوكل واجمعه عندك . فيكون لك ولها طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله . هكذا فعل .

الاصحاح السابع

وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بنيك إلى الفلك لأنى إياك رأيت باراً لدى فى هذا الجيل . من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى . ومن البهائم التى ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى . ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى . لاستبقاء نسل على وجه الأرض . لأنى بعد سبعة أيام أيضاً امطر على الأرض اربعين يوماً واربعين ليلة .

وأخوه عن وجه الأرض كل قائم عملته . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب .
ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض . فدخل
نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه الى الفلك من وجه مياه الطوفان . ومن
البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على
الأرض دخل اثنان اثنان الى نوح الى الفلك ذكرًا وأنثى . كما امر الله نوحًا .
وحدث بعد السبعة الأيام ان مياه الطوفان صارت على الأرض . في
سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر
في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الفجر العظيم وانفتحت طاقات السماء . وكان
المطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة . في ذلك اليوم عينه دخل نوح
وسام وسام و يافث بنو نوح وامرأة نوح وثلث نساء بنيه معهم الى الفلك .
هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التي تدب
على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذى جناح .
ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة .
والداخلات دخلت ذكرًا وأنثى من كل ذى جسد كما أمره الله . وأغلق الرب عليه .
وكان الطوفان أربعين يومًا على الأرض . وتكاثر المياه ورفعت
الفلك . فارتفع عن الأرض . وتعاضمت المياه وتكاثرت جدًا على الأرض .
فكان الفلك يسير على وجه الماء وتعاضمت المياه كثيرًا جدًا على الأرض فتغطت
جميع الجبال الشاخنة التي تحت كل السماء . خمس عشرة ذراعًا في الارتفاع تعاضمت
المياه . فتغطت الجبال . فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض . من الطيور
والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع
الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات . فمحا الله
كل قائم كان على وجه الأرض . الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء .
فانمحت من الأرض . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط . وتعاضمت المياه
على الأرض مئة وخمسين يومًا .

الاصحاح الثامن

ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك . وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه ، وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء . فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً . وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه . واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبل أراراط . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر . وفي العاشر من أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال .

وحدث بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها وأرسل الغراب . فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها . فرجعت إليه إلى الفلك . فلبث أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك . فأتت إليه الحمامة عند المساء . وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها . فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض . فلبث أيضاً سبعة أيام آخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً .

وكلم الله نوحاً قائلاً . أخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك ، وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التي تدب على الأرض أخرجها معك . ولتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض . فخرج نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كانواها خرجت من الفلك .

وبني نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور وأصعد محرقات على المذبح . فتنسم الرب رائحة الرضا . وقال الرب في قلبه . لأعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لانه تصور قلب الإنسان شرير

منذ حدثته . ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت . مدة كل على الارض
زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال .

الاصحاح التاسع

و بارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واملأوا الارض . ولتكن
خشيتكم ورهبتمكم على كل حيوانات الارض وكل طيور السماء . مع كل
ما يدب على الارض وكل أسماك البحر قد رفعت إلى أيديكم . كل دابة حية
تكون لكم طعاماً . كالعشب الاخضر دفعت اليكم الجميع غير أن لحماً بحياته دمه
لا تأكلوه . وأطلب أنا دمكم لانفسكم . من يد كل حيوان أطلبه . ومن يد
الانسان أطلب نفس الانسان . من يد الانسان أخيه . سافك دم الانسان
بالانسان يسفك دمه . لأن الله على صورته عمل الانسان . فأثمروا أنتم
وأكثروا وتوالدوا في الارض وتكاثروا فيها .

وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً . وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم
من بعدكم . ومع كل ذوات الانفس الحية التى معكم . الطيور والبهائم وكل
وحوش الارض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان
الارض . أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان .
ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الارض . وقال الله هذه علامة الميثاق الذى
أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الانفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر .
وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الارض . فيكون
متى نشر سحاباً على الارض وتظهر القوس فى السحاب انى أذكر ميثاقى
الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد . فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً
لتهلك كل ذى جسد . فتمت كانت القوس فى السحاب أبصرها لا ذكر ميثاقاً
أبدياً بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الارض . وقال الله لنوح
هذه علامة الميثاق الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذى جسد على الارض

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً وياث .
وحام هو أبو كنعان . وهؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ، ومن هؤلاء تشعبت
كل الارض

وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً . وشرب من الخمر فسكر وتعري
داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً . فأخذ
سام وياث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة
أبيهما ووجهاهما إلى الوراء . فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من
خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال ملعون كنعان . عبد العبيد يكون
لاخوته . وقال مبارك الرب آله سام . وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله
لياث فيسكن في مساكن سام . وليكن كنعان عبداً لهم .
وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة . فكانت كل أيام نوح
تسعمائة وخمسين سنة ومات .

الطوفان في أساطير اشور وبابل

اسطورة الطوفان في ألواح بابل واشور قسم من قصة حماسية بطلها
شخص يدعى « غلغامش » « Gilgamesh » منقوشة بالخط المسماري في
اثني عشر لوحاً . وتعتبر قصة « غلغامش » الشعرية في صف واحد مع قصة
الخالق البابلية من حيث القيمة الادبية بين كل ما خلف أهل بابل من الآثار .
أما عناصرها المكونة لما نجتمع بين كثير من المادة الميثولوجية استمدت من
منابع كثيرة . ويجوز أن يكون لها أصل تاريخي تعود اليه نشأتها . ومن مجموع
المادة الميثولوجية وتلك الأصول التاريخية التي يرجح البعض أن القصة ترتكز
عليها ، نسجت هذه الأسطورة فأصبحت قصة واحدة مؤلفة الوقائع

والحوادث ، وكلمة تدور حول البطل « غلغامش » أمير « أرك » « Erech »
أما المرجع الذي استمد منه الباحثون أصول هذه القصة فهو على الشخص
بقايا الألواح المشوهة التي عثر عليها في مكتبة « اشور بانبال » « Assur-
bani-pal » غير أن كثيراً من الشواهد والملاحظات التي عثر عليها
الارخيولوجيون تدل على أن بعض تقاليد هذه القصة على الأقل ، ان لم تكن
كلها ؛ إنما ترجع إلى عهد أبعد بكثير من عهد « اشور بانبال » . فأنك تجد مثلاً
أن لو حأ يرجع تاريخه إلى ٢١٠٠ سنة ق . م . يحتوي على قصة في الطوفان هي
بذاتها التي أدمجت في قصة « غلغامش » وذكرت في اللوح الحادى عشر من
ألواحها . والراجع أن هذه القطعة وغيرها من المقاطع التي تتكون منها هذه
الأسطورة ، قد تنوقات بالرواية التقليدية أن ماناً طويلة قبل أن تنقش على
هذه الألواح — أى أنها ترجع إلى العهد السومري « Sumerian period »
كان « اشور بانبال » من أكثر الملوك عناية بالادب ومن حماة الثقافة .
فقد جمع في مكتبته العظيمة بمدينة « نينوه » « Nineveh » — (وهى المكتبة
التي نقل نواتها الملك « سنكريب » « Senancrib » من بلدة كالح
(Cala) خزانة عظيمة من المجلدات والألواح السكسية وأوراق البردى ،
نقل معظمها كغنائم حربية من البلاد التي غزاها . واستأجر النساخ لينقلوا له
صوراً من المتون القديمة . وإلى هذه الطريقة على ما يظهر ، يرجع السبب في
تسطير قصة « غلغامش » الشعرية . ولقد يظهر من القطع والأجزاء المحفوظة
الآن في دار العاديات الانجليزية ؛ أن أربع نسخ من هذه القصة على الأقل
قد نقلت في عصر « اشور بانبال » . غير أن الحوادث لم تبقى على هذه النسخ
من غير أن تتناولها بالتبديد والتخريب . فان الامبراطورية الاشورية كانت
آخذة في سبيل الفساد والانحلال بسرعة . ولم يمض زمن طويل حتى سقطت
« نينوة » وتبددت مكتبتها الكبرى ، في حين أن المختصين قد أحرقوا الفائف

البردى ، ودفنوا الألواح الكلسية مع انقراض القصر الذى كان يحويها .
وهناك ظلت هذه الألواح ألفين من السنين حتى أدركها سير . ا . هـ .
لا يارد و مستر جورج سميث بتنقيباتهما ، فأخرجها الى الناس مرة أخرى .
ولا براء في أن الألواح الاثني عشرة التى تتضمن قصة « غلغامش » (أو
أجزاءها الباقية منها و التى استكشفت حتى الآن) مشوهة تشويهاً كبيراً .
فقد تجد أن معنى فقرة برمتها قد غمض وتعذر فهمه بفجوة حادثة في المتن
الاصلى ، ولا جرم أن مثل هذه الفجوات ليست بالشئ التافه عند الذين
يريدون أن يدرسوا الأساطير الميثولوجية درساً وافياً و يقفوا على تفاصيلها
بدقة تفي بأغراض البحث العلمى . غير انه على الرغم من كل هذا ، فإن علم
مقارنة الأديان قد تقدم في العهد الاخير الى درجة أصبحنا معها أقدر على
أن ندرك من أهمية هذه القصة الشعرية الميثولوجية ؛ وأن نقرأها بدقة لم
يلغها البابليون أنفسهم ؛ لأنهم لم يعرفوا من هذه القصة إلا أنها مجرد رواية
للخاطرات و الافعال العظيمة التى قام بها أحد أبطالها .

إن القصة الشعرية التى تدور حوادثها حول مدينة « اربخ » قد سبقت في
مخاطرات بطل نصف انسان ونصف إله يدعى « غلغامش » ؛ كان ملكاً في
تلك المدينة . وفي القصة شخصيتان أخريان هما شخصية « ايبانى »
« Eabani » وهى الشخصية التى تمثل الانسان البدائى على الأرجح ، وشخصية
« أوت - نابشتيم » « Ut - napshtim » بطل رواية الطوفان البابلية . ويرجح
أن كلا من هؤلاء الأبطال الثلاثة كان محور مجموعة من الأساطير التقليدية
تداولت بعضها في بعض مع مضي الزمان ، بطريقة ما من الطرق ، وعلى
أسلوب غير بين تماماً .

أما أكثر شخصيات هذا الثالوث أهمية وأولهم من حيث القيمة فالبطل
غلغامش . ولا يبعد أن يكون شخصاً حقيقياً عاش خلال عصر من

عصور بابل ، غير أنه ليس لدينا من التاريخ الثابت ما يؤيد هذا الزعم . كما أنه يحتمل أن تكون مجازفات أحد ملوك مدينة « أرك » في العصور القديمة قد اتخذت نواة بنيت عليها هذه القصة . أما اسمه فقد نطقه الباحثون « غزدوبوبار » « Gisdbubar » أو « از دو بار » « Izdubar » غير أنه قد عرف الآن انه كان ينطق « غلغامش » « Gilgamesh » كما حقق ذلك العلامة « بنشين » « Pinches » . أما الاسم فلا يدل على أنه كان « بابلي » الاصل بل يرجح أنه كان « عدلامى » « Eiamite » أو « قسى » « Kassite » أصلاً ودماءً . ويتضح من بعض الاشارات التى يعثر عليها فى الألواح أنه غزا « أرك » (أو أنه أنقذ المدينة من جيش محاصر لها) عند بدء مخاطراته التى تتكون منها الاسطورة . وزعم البعض أنه بذاته « النمرود » الذى ذكرته الأناجيل ، وهو كالأخر ، بطل من أبطال بابل القديمة . غير أن هذا الزعم لا يقوم على أدلة مقنعة .

هذا كل ما يمكننا أن نقول أنه وصلنا تاريخياً عن « غلغامش » . أما شخصيته الميثولوجية فأقل تعقيداً وأسهل فهماً . فهو فى الاساطير البابلية عبارة عن الشمس متجسدة فى صورة انسان . فى حين أن حقيقة ، على ما أجمع المؤرخون تنحصر فى أنه مزيج من كائن خرافى وبطل وطنى ؛ تدابجا لتخرج منهما شخصية اسطورية . فانك تجد فى خلال القصة وفى كثير من مواضعها اشارات تدل على أن « غلغامش » كان نصف انسان ونصف آله ولو انك لا تقع على شئ محدود ينص على هذه المسألة بالذات . و فرق ما بين الاشارة والنص الحرفى . وحقيقته باعتباره « آله الشمس » مستورة بالغاز خلال القصة ، ولو أنه من الجلى أن له علاقة ما بالآله « شاماش » « Shamash » الذى يقدم « غلغامش » اليه خضوعه ويخصه بصلواته ، و الذى يتخذة حامياً ونصير .

من بين الاساطير المتناقلة عن مولد « غلغامش » أسطورة رواها « آليان » « Aelian » (راجع Historia animalium XII) وسماه « غلغاموس » « Gilgames » بن « سوقاروس » « Sokkaros » أما « سوقاروس » فيقول « يروسوس » « Berossus » انه أول ملك حكم بابل بعد الطوفان ، وان النذر الربانية قد اندرته بأن ابنته سوف تلد طفلاً ينزله عن عرشه ويستأثر به. ومن أجل أن يدفع عن نفسه القدر المقدور ، سجنها في برج منيع ، وأقام عليها الرقباء والحراس . غير أنها على الرغم من هذا ولدت ولداً . بيد أن الحراس ليقينهم بأن غضب الملك سوف يكون شديداً إذا علم بمولد هذا الطفل ، ألقوا به من أعلى البرج إلى الخارج . ولم يصل الطفل إلى الأرض ، بل التقطه نسر عظيم قبل أن تصدمه الصخور ، وطار به إلى حديقة ، حيث التقطه فلاح كان يعمل بها وقام عليه بالرباية والعناية الواجبة . فلما بلغ هذا الطفل مبالغ الرجال ، أصبح ملكاً على كل البابليين ؛ بأن اغتصب عرش جده عنوة واقتداراً .

هنا نقع على أسطورة يظهر كل الظهور أن لها علاقة بالشمس ، وأنها تتفق كل الاتفاق جملة وتفصيلاً مع صور أسطورية أخرى مستمدة من ألوهية الشمس . ولا يمكن أن يكون مجرد الاتفاق والمصادفة سبباً في أن تلصق هذه الاسطورة بـغلغامش . فان كل ما في القصة يدل على اعتقاد ثابت بأن « غلغامش » من آلهة الشمس ؛ وعلاقته « بشاماش » « Shamash » الذي لا يبعد أن يكون أباه ارتكناً على الأسطورة التي رواها « آليان » . وكذلك النسر الذي أنقذه من الاصطدام بالأرض لدي القائه من أعلى البرج . أضف إلى ذلك أن كل الاسطورة خلو من ذكر أبيه ، في حين أن أمه قد ذكرت مرات عديدة . وأن روح القصة من أولها إلى آخرها يرمى إلى الإشارة

بأنه أكثر من إنسان .

أما وقد استطعنا أن نعرف شيئاً عن حقيقة شخصيته الميثولوجية؛ فلا يصعب علينا بعد ذلك أن نستدل من مخاطراته على مطابقة تناظر سير الشمس يومياً (أو سنوياً) إذ تكون في عظمتها وقوتها لدى الظهيرة (أو في منتصف الصيف) ثم تنحدر إلى المغيب تلقاء الأفق الغربي ، لتعود من بعد ذلك مرة أخرى إلى مأهل الناس . وهو ككل آلهة الشمس - إذ تكون كالشمس نفسها - من حيث مولدها وأصلها ، محفوفة بالأسرار محوطة بالالغاز . وهو كذلك شخصية تمثل أحد «الاولاد المنحوسين» - مثل «سرجون» «و فرساوس» - فإنه إنما يظهر في الرواية لأول مرة بطلاً كامل أوصاف البطولة ؛ حاكماً مستبداً بمدينة «أرك» . أما أمه «ريمات - بليت» - Rimat - belit - فكانت بمعبد «عشتار» «Ishtar» وهو من طريقها أحد خلائف «أوت - نابشتيم» أحد أهالي «شوريياك» «Shurippak» وبطل رواية الطوفان البابلية . وفي أول القصة تقع على علاقته بالرجل المتوحش «إيباني» ؛ وهو رجل خلخته الآلهة وصورته من أجل أن يحطم «غلغامش» ويذهب بريجه . غير أن الصداقة تقوم بينهما مقام النداء . ويذهب الاثنان معاً ليحاربا «المسخ خومبابا» «khumbaba» فينتصرا عليه ؛ كما ينتصرا أيضاً على الشور المقدس الذي يرسله إليهما الآله «عانو» «Anu» ويستمر انتصارهما تاماً متتابعاً حتى نهاية اللوح السادس . وتستمر قوة «غلغامش» في الازدياد كالشمس إذ تقارب الأوج . وفي أول اللوح السابع يأخذ سعده في الأثول . فيموت «إيباني» ، إذ يقتل تحت تأثير غضب «عشتار» بعد أن يرفض «غلغامش» حبها باحتقار ويردها بازدراء . وهنا يحزن «غلغامش» على موت صاحبه حزناً شديداً ويدخله الخوف من أن يموت كما مات رفيقه ، فيصمم على الذهاب باحثاً وراء سلفه «أوت - نابشتيم» (على اعتبار أنه

الشخص الوحيد الذي نجا من الطوفان مسحته الآلهة بمسحة الألوهية ووهبته الخلود ، ليعرف منه سر الحياة الخالدة . اما مخاطراته التي يصادفها في هذه السبيل فليس عليها من صبغة العظمة ما كان لمخاطراته الأولى - فيتجه نحو الشمس ميمما شطر « جبل الغروب » ويقتحم طريقه من بين « العقاربة » (رجال أشبه بالعقارب) « Scorpion - men » ويعبر بحر الموت . أما « أوت - نابشتيم » فيلقنه أن الناس لا بد من أن يموتوا أجمعين ما عداه هو . لانه مستثنى منهم لظروف شاذة . وعلى الرغم من أنه بعد ذلك يهيء « غلغامش » بفرصة أن يأكل من « شجرة الخلود » فانه يفقد الفرصة . ثم يشفي « أوت - نابشتيم » « غلغامش » من مرض ينزل به عند ما كان يعبر « بحر الموت » ، ثم يعود بعد ذلك الى مدينة « إريخ » وفي هذه الاعمال تتخيل كيف تنحدر الشمس نحو المغيب الى العالم السفلي عندما تميل نحو « جبل الغروب » . كذلك يستحيل على الشمس أن تكسب الخلود وأن تظل أبد الآبدن مشرقة على أرض الأحياء . انها لا بد من أن تعبر « بحر الموت » وان تختفي في العالم السفلي . غير أن عودة « غلغامش » إلى « إريخ » تمثل تنفس النهار مرة أخرى . وفي هذا معنى الصراع الدائم بين الليل والنهار ، والسيوف والشتاء . فالظلمة قد تغزو النور ، غير أن النور لا بد من أن يبرز منتصرا مرة أخرى . والصراع دائم لا نهاية له .

ولقد رأي بعض الثقاة أن في تقسيم القصة الى اثني عشر لوحا ، علاقة باسهر السنة أو بمناطق البروج . ولا يبعد أن يكون لهذا التقسيم علاقة بهذه الفكرة . ولكننا إذ نرى أن تقسيم القصة تقسيما وضعيا في ألواح قلما يتفق مع تقسيم القصة الطبيعي ، فالظاهر أن الصيغة الاسترولوجية - (التنجيمية) لهذا التقسيم ، هي من وضع نساخ - نينوه - Nineveh - الذي يظهر انهم اجهدوا انفسهم كل جهد في سبيل تقسيم القصة على هذه الصورة .

أن أعظم ما في اسطورة « غلغامش » من الصور الميثولوجية المتنافرة، هي تلك الصورة التي يمثلها « إيباني »، وهو الشخصية التي تمثل الانسان البدائي الذي يعيش مع وحوش البرية كواحد منهم. غير أنه على لما يري بعض الثقة صورة أخرى من صور آله الشمس، قد تقارب في أهميتها شخصية « غلغامش » نفسه. فهو كبطل « أرك » يرتفع الى الأوج الاعلى من القوة والسلطة منظومة في سلسلة متتابعة من الانتصارات، ثم يسقط آفلا الى الدنيا السفلى. وهو على ذلك لا يفنى فناء تاما، او تزول صورته زوالا كاملا، بل تبقى ذكراه حية في مخيلة « غلغامش ». وهو في اللوح الثاني عشر يعود إلى هذه الدنيا، لا بذاته بل بشبحه « utukku » وتلك مسألة قديمة لها لعودة الشمس صبيحة كل يوم، بعد أن تكون قد تردت في العالم السفلى.

اما الصورة الميثولوجية الاخرى فهي الصورة التي تمثل « أوت - نابشتيم » وهو « نوح البابل ». وينا نجد أن القصص الدائرة حول شخصية « إيباني » وشخصية « غلغامش » قد تداجتا بعضهما في تضاعيف بعض، وان كان في استطاعتنا حتى الآن أن نميز بينهما ونفرق بين عناصرهما، فان اسطورة الطوفان ورباطها « أوت - نابشتيم » قد ادخلت في اللوح الحادي عشر من ألواح القصة كرواية زواها « أوت » نفسه « لغلغامش ». وعند ما يظهر « أوت » لأول مرة على مسرح القصة، يظهر مزودا بكل صفات الآلهة وقواتهم وسلطانهم، تلك الاشياء التي خلعها عليه الآلهة جزاء وفائه لهم اثناء الطوفان الذي اغرقت مياهه كل أفراد النوع البشري ما عداه. ويلوح لنا أن المقصود من رواية الطوفان ومزجها بقصة « غلغامش » الاشارة الى البطل الكبير، بانه لا ينبغي الانسان من حثفه المحتوم الا ظروف استثنائية، بل ظروف نادرة جدا في الحياة.

وفي القصة صور ميثولوجية أخرى بينة المقاصد منها وقعة « غلغامش » مع المسخ « خومبابا » وحب « إشطار » لغلغامش ، والقتال مع الثور المقدس الذي أرسله « عانو » الآله ، والبحث وراء شجرة الحياة . وهذه الصور ، مهما كان صلبها ومهما كان منشؤها ، فإن الحقيقة أنها ادمجت في قصة « غلغامش » ادماجاً وعلى الرغم من العناصر التاريخية والميثولوجية التي تقع عليها خلال هذه العصور ، فإن فيها قدراً غير ضئيل من مذهب بابل الدينية ، تظهر بجلاء في اللوح الحادي عشر (وفيه إشارة إلى أن كل الناس لا بد من أن يأت بهم الموت) ولكن ذلك إلا نقع له على أثر في اللوح الثاني عشر حيث يظهر شبح (إيمان) لغلغامش ويروي له ما يري الموتى المدفونين تحت الثرى من أرهاق ، أو أولئك الذين لا يعنى بهم أهلهم بعد موتهم ، وزعمه بأن عناية الأحياء بالموتى هي السبيل الأوحى الذي يمكنهم من أن يفلتوا من الآلام المحمضة التي يصادفونها في العالم السفلي .

أما إذا أردنا أن نمتحن قصة « غلغامش » كما وصلتنا من البقايا المتناثرة التي حفظت في ألواحها ، فانا نجد أن اللوحين الأول والثاني قد شوها تشويهاً كبيراً . وليس لدي المنقبين من بقاياهما إلا قطعاً متناثرة غير مجموعة في مكان واحد ، كما أنه يستحيل عليك أن تحكم على تلك القطع ، أيها من اللوح الأول وأيها من اللوح الثاني ، كما أنه يتعذر عليك أن تحكم أين ينتهى الأول وأين يبدأ الثاني . وفي قطعة من هذه القطع قد تقع على ما يجملك تحدى بأنه بدء اللوح الأول ؛ إذ يدخل بك في تصدير يعرفك به مقدار الفائدة التي تجنيها من اطلاعك على محتويات اللوح ، معدداً لك إياها في جدول طويل . وبعد ذلك تأتي قطعة أخرى يستحيل عليك أن تعين موضعها من اللوح . وفيها وصف لحصار وقع لمدينة « أرك » غير أنك لا تقع في هذه القطعة على ذكر « غلغامش » . وفيها أيضاً وصف مستفيض للآلام والمصائب التي عانتها « أرك » تحت الحصار . واليك شيء من هذا الوصف .

« وطأت الاتن أولادهما إلى الحضيض ، وفرت الأبقار صغارها فوق
الثري بأقدامها . والرجال يزأرون كالسواثم ، والعداري ينحن محزونات
كالجمائم . لقد تبدلت آلهة « أرك » الشاخنة الأسوار إلى ذباب هائم ، يئز
بأجنحته في الطرق والممرات . وأرواح « أرك » الحصينة المسورة ، قد انقلبت
أفاعى تنساب في الجحور . لقد حاصر العدو « أرك » ثلاث سننوات ،
والأبواب مغلقة ، والمنافذ مقفلة ، كل هذا « وعشتار » في سباتها لا ترفع
رأسها أمام العدو . »

فاذا صح يوماً من الايام أن هذه القطعة جزء من قصة « غلغامش » ،
فانا ولا شك نعجز عن أن نحكم في « غلغامش » ، أكان صاحب الحصار
أم رافعه ؛ أم أن له بهذه المسألة أية علاقة على وجه الإطلاق .

« غلغامش متمد »

والآن نبدأ في شرح هذه القصة الشعرية كما تبدأ على بقايا لوح من
الألواح يقول فيه بعض ثقة الباحثين انه بدء اللوح الثاني ، ولكن آخرون
يرجحون أنه جزء من اللوح الأول . وفي هذا الطور نجد « غلغامش »
ياعب على مسرح القصة دوراً مزدوجاً إذ يظهر كأنه ملك على « إريخ » مستبد
بأهلها . على أن مظهر الاستبداد غير جذير يبطل ؛ بل انه ليس من أخلاق
الابطال في شيء . وليس هنالك ذكر لحصار ؛ كما انك لا تعثر على شيء يستدل
منه على المصدر الذي جاء منه « غلغامش » ، على الرغم من أن الأرجح أنه
جاء « أرك » كفاتح غاز . ولدينا على صحة هذا الترجيح دليل هو استبداده بأهل
المدينة ، ففي هذا المظهر ربح الفتح والغزو عنوة . فقد سخر الفتيان في بناء
حائط أو جدار عظيم ، واستأثر في بلاطه بأكثر الفتيات جمالا وأشدهن
فتنة . انه - « لم يترك الصبي لأبيه ، ولا الفتاة لخطيبها ، ولا الزوجة لزوجها »
وفي النهاية فزع أهل المدينة إلى الآلهة من استبداد « غلغامش » ، وصلوا للآلهة

« آرورو - Aruru - » بأن تخلق بطالا شديداً البأس قوي الاصلاح يدفع عن ظلامتهم، ويرد عنهم العسف والجور، وأن يكون « لغلامش » مصدر خوف وخشية فيخفف عنهم، ويروح عليهم شيئاً ما ، فلا يبطش بهم كل البطش. وضم الآلهة صلواتهم إلى صلوات المظلومين المرهقين استبدادا ، وفي النهاية وافقت « آرورو » أن تخلق بطالا يناوي « غلامش » ثم تتصل القصة .

« ولما سمعت الآلهة « آرورو » هذه الكلمات صورت في ذهنها بطالا يكون على صورة « عانو » ، وغسلت « آرورو » يديها ؛ وأخذت قطعة من صلصال كالفخار فكسرتها ، ثم نبذتها إلى الأرض ؛ وبذلك تم خلق البطل « إيباني » .

ولما تم خلق هذا الشخص ظهر في صورة رجل متوحش يقطن الجبال والحرش ، « فكان كل جسمه مغطى بالشعر الكثيف ؛ بل كان مكسو بشعر طويل كشعر النساء ، وكان شعره نامياً قويا كشعر آله القمح ؛ ولم يكن يعرف الأرض التي خالق من فوقها ؛ ولا الناس الذين هبط عليهم ؛ فكسى بأكسية تشابه أكسية آله الحقول ؛ ومع الغزلان أكل العشب ؛ ومع السوائم أروي عطشه ونقع غلته ؛ ومع حشرات الماء رقص قلبه طرباً »

ولقد عثر على خراطيش وأختام اسطوانية منقوشة مثل فيها « إيباني » كأنه مسخ - ساتير - له رأس انسان وذراعه وجسمه ؛ وقرنا وحش وأرجله وأذناه. وكما رأينا من قبل نجد هنا أن هذا الرمز إنما يمثل الانسان الحيواني - البدائي - يسرح مع السوائم في الحقول والاحراش ، وهو على جهل تام بكل ما في المدينة من طارف وتليد .

خدعة إيباني :

هنا يدخل في القصة عنصر جديد ، هو عبارة عن شخصية « تسايدو »

Tsaidu- القناصر، ويرجح أن هذه الشخصية قد سخرتها الآلهة لتتم اللقاء بين « غلغامش » و « ايبانى » . أما كيف قابل ايبانى لأول مرة فليس بظاهر لتشوه كبير واقع في اللوح الأصيل . وقد قرأ البعض هذه القطعة المشوهة فقالوا بأنها تؤدي معنى ان ملك « أرك » لما علم بالمؤامرة التي دبرها الآلهة لكي ينزلوه عن عرشه ، أرسل « تسايديو » ليجوب في أنحاء الجبال والوديان باحثاً عن « ايبانى » وقد حضه على أن يحيط به بكل الوسائل ويأتي به مكبلاً في الأغلال الى مدينة « أرك » . وقرأ البعض هذه القطعة فرجع عندهم أن اللقاء كان اتفاقاً ، ومهما يكن من هذا الأمر ، فان « تسايديو » رجع الى « إريخ » وقص على « غلغامش » نتيجة تجاربه مع « ايبانى » ، وذكر له قوة الرجل المتوحش البالغة ، وسرعته في العدو وقطع المسافات البعيدة في أقرب حين ، وكذلك أخبره عن الحجل الشديد الذي يتولاه عندما يلتقي بأحد من أبناء النوع البشري ؛ ومن الجلي أن « غلغامش » لا بد من أن يكون قد تأكد من السبب الذي أرسل الآلهة من أجله « ايبانى » فيحاول أن يفسد ما صمم عليه الآلهة بأن يلتقي شخصياً بالرجل المتوحش ، وأن يضع لهذا اللقاء تصميمًا ؛ فيأمر « تسايديو » بأن يعود الى الجبال وأن يأخذ معه « أوخوت » ، وهي إحدى الفتيات المقدسات التابعات لهيكل « عشتار » . أما غرضه فكان أن تلتقي « أوخوت » به وتتمكن بأخاديعها أن تأتي به الى « أرك » . وعلى هذا يخرج القناصر والفتاة . وتمضى القصة:

« يسلكان الطريق المستقيم من غير أن ينعطفا همة أو يسرة ؛ وفي اليوم الثالث يصلان الى المكان الذي اعتاد « ايبانى » أن يشرب منه ويستخفى « تسايديو » والفتاة ، ويظلان حيث هما يوماً ثم يرمين ، على مقربة من مكان الاستسقاء ، ثم يقدم « ايبانى »

وهنا تمضى القصة في وصف طويل للقاء بين « ايبانى » و « أوخوت » ، ولم تجد « أوخوت » من صعوبة في أن تجذب ايبانى اليها بحماها الفتان . وظل « ايبانى »

سنة أيام وثمان ليال لا يتذكر شيئاً ولا يعرف شيئاً من أخذته الاولى التي أخذها بجمال «أوخوت» وحبيبها الذي تملك كل قلبه . وبعد أن عاد إلى رشده تفقد غزلانه وقطعانه التي كانت تتبعه أينما سار ؛ فوجد أنها لا تتبعه كما كانت تتبعه أولاً ، فخر يأساً تحت قدمي «أوخوت» ، وهنا تخبره عن مدينة إريخ وعن ملكها . «إنك جميل يا إيباني ! إنك أشبه بالآلهة ! لماذا تبقي في الوديان تذرهما مع وحوش البرية وسواهما ؟ تعال معي ، فاني سأقودك الى «أرك» الحصينة ذات الأسوار القوية ، الى القصر اللامع ، مقر «عانو» و «عشتار» ، الى قصر «غلغامش» الكامل القوة ، والذي يخضع البشر بقوته العظمى ، كما يخضعهم ثور الجبال»

ووجد «إيباني» في كلام «أوخوت» حلاوة وقصداً محبباً ، فرغب في صداقة «غلغامش» وصارح انه راغب في أن يتبع الفتاة الى مدينة «إريخ» وبذلك بدأت رحلة «تسايدو وإيباني وأوخوت» الى المدينة

«غلغامش يلتقي إيباني»

وكان عيد «عشتار» قائماً عندما وصلوا إلى «أرك» ؛ ولقد سبق ألى وهم «إيباني» أنه لا بد من أن يشتبك في معركة مع «غلغامش» قبل أن يفوز بصداقة هذا البطل ، غير أنه أندر (ولا ندري ان كان الانذار قد أتاحه من طريق الرؤيا أو من طريق «أوخوت») بأن «غلغامش» أقوى منه ، وأنه فوق ذلك صني الآلهة ، فرجع عن فكرة العراك . حدث ذلك في الوقت الذي رأي فيه «غلغامش» رؤيا فسرتها له أمه «ريمات-بليت» -Rimat - belit- بأنها تدل على قدوم «إيباني» . أما الجزء الذي يروي لقاء غلغامش وإيباني ؛ فمع الاسف مفقود ؛ غير اننا نعرف من القطع التي نستمد منها القصة بأنهما تلافيا وتصاحبيا .

والظاهر أن الاجزاء التالية لهذه من القصة تابعة للوح الثاني . وفيها

نجد، إيباني» حزيناً كثيراً يندب حريته الأولى وينحى باللائمة على فتاة المعبد التي أغوته على أن يأتى إلى المدينة . على أية حال نجد أن « شاماش » - آله الشمس - يتدخل فى الامر (والظاهر أن هذا التدخل كان من طريق رؤيا - فان الاحلام تلعب دوراً هاماً فى كل أجزاء القصة) ويظهر « لايباني » كل الفوائد التي جناها من قدومه والتحاقه بالمدينة وأهلها ، ويحتج بالترغيب والتمنى أن يحمله على البقاء فى « أرك » - فيقول :

« هذا غلغامش صديقك وأخوك سيعطيك عربة عظيمة لتنام فيها مهيأة بكل المعدات الضرورية ، وسيخصص لك مقعداً عن شماله ، وتقبل ملوك الأرض قدميك

فيقتنع « إيباني » فى الظاهر ، وكيف عن الشكوى من محيطه الجديد ؛ ويخضع راضياً عما سبق له فى القدر

أما الأجزاء الباقية من أجزاء اللوح فتظهره لنا مشغولاً بحلم آخر . وفى نهاية هذا الجزء من القصة نجد البطلان قد صمما على القيام بحملة ضد المسخ « خومبابا » ، حارس موطن الآلهة « إرينا » « Irnina » (وهى صورة من عشتار) فى غابة السيدر .

وفى اللوح الثالث ؛ رغم تشوّهه الكبير ، يظهر البطلان وقد ذهبا لاستشارة « ريمات — بليت » أم « غلغامش » ومنها يطلبان الحماية من « شاماش » فى حملتهما التي أزمعا عليها . فتتصح الراهبة العجوز ولدها وصاحبه عن الطريق التي يسلكان ، وترفع يديها الى آله الشمس وتطلب منه العون « لغلغامش » « لماذا انزلت الاضطراب على قلب ولدي « غلغامش » ؟ استأثرت به ؛ وسوف

يذهب بعيداً فى سياحة طويلة الى حيث يقطن « خومبابا » وسوف يشتبك معه فى معركة ليس يعرف ماذا ستكون نتيجتها ، وسيسلك طريقاً لم يعرفها . فحتى يصلك وحتى يعود ، وحتى يغشى غابة السيدر وحتى يقتل المسخ « خومبابا » الفظيع ويطهر الأرض من الارجاس التي تكرهها ، وحتى يوم رجوعه الى

أجعل عين « آيا » - Aya - صفيك توجهه اليك على الدوام .
وهنا ينتهي هذا الدعاء المملوء حرارة ، الفائض بالروعة والجلال .

المسخ خومبابا

في اللوح الرابع وصف للمسخ الذي كان البطلان على وشك مقاتلته . فان «خومبابا» «Khumbaba» الذي أقامه الآله «بعل» - Bel - على حراسة شجرة « السيدر » - وهي شجرة معينة من السيدر أكثر ارتفاعا وتقديسا من بقية أشجار الغابة - لخلق في البشاعة وقبح المنظر قائما برأسه . وكان مجرد وجوده في الغابة يصيب الذين يلجونها من غير أن يروه بالضعف وانحطاط القوي . ولما يدنو منه البطلان يشكو « إيباني » ضعفا يحسه في يديه وارتخاء في ساعديه غير ان « غلغامش » يستحثه بكلمات التشجيع .

وليلاحظ هنا أن اسم « خومبابا » من أصل « عيلامي » - Elamite - نسبة الى القبيلة المعروفة . وهذه الحقيقة قد ساقى بعض الباحثين الى القول بأنه المسخ واحد مع اسرة « عيلامية » قديمة كانت قد استقوت على مدينة « أرك » وحكمتها ؛ وان هذه الاسرة قد اختفت آثارها التاريخية منذ سنة ٢٢٥٠ ق.م . على أنه من الصعب ، ان لم يكن من المتعذر ؛ أن تستكشف العلاقة الواقعة بين قصص ميثولوجي ، وحقيقة تاريخه محدودة الحوادث . غير أن اقصى ما يمكن الاستدلال عليه من مثل هذه الحقيقة ؛ هو وجود نزاع أو عداء بين « عيلام » و « بابل » .

فاذا انتقلنا الى الاجزاء التالية من الألواح ، كنا في اللوح الخامس . فان البطلين وقد وصلا إلى جبل مخضوض خصيب يجلسان في هدوء ليلقيا بنظرة على « غابة السيدر » . ولما يلجان الغابة يحلم أحدهما أو كلاهما بمقتل « خومبابا » . ولذلك يقدمان إلى العراق مسرعين . غير أنه من الأسف لم يبق من اللوح

تلك القطع التي تصف صورة المعركة. اما مقتل «خومبابا» فيستدل عليه من الالواح التالية.

عشتار وحبها لغلامش

في اللوح السادس الذي يروي قصة حب عشتار «لغلامش»؛ وقيل الثور المقدس؛ يلزم الانتصار البطلي. غير أننا في الوقت ذاته نقع على الأسباب التي تعزو إليها هذه الخرافة سر ما يلقيان من النحس وسوء الطالع. فتجد أن غلامش؛ بعد أن يقتل «خومبابا»، ويقفل عائداً الى «أرك»؛ يذيع صيته. ويرتفع ذكره. ولذا يند الثياب الملطخة بالوحول المجللة بدماء فريسته؛ ويرتدي ثياباً لا يرتديها الا الملوك الفاتحين. وتقع عليه عينا «عشتار» وتراه في أبهة الملك وعظمة السلطان، وزهرات الانتصار تزين جبينه وتكلل رأسه؛ فيلتهب قلبها حباً وتهيم به غراماً. وبكلمات ملئن حرارة وعاطفة، تمت إليه أن يكون بعلمها، وتعهده بأنه اذا دخل منزلها - حيث يقوم في جوف غابة السيد المظلم - فانها سوف تفعمه بعطاياها وتبهره بهباتها؛ وأن قطعانه سوف تزيد وان خيوله وثيرانه سوف لا يكون لها نظير، وان نهر الفرات سوف يقبل رجليه ويخضع له، وان الملوك والامراء سوف يخضعون له ويقدمون له الاتاوات. غير أن «لغلامش»، وكان يعرف شيئاً عن تاريخ هذه الآلهة المملوءة بالشهوة المشبوبة بالعاطفة، قد رنض حبها باحتقار، وبدأ يهمس بها سراً وعلناً. ولقد ذكرها بما فعلت مع غيره ممن احبوها من قبل. ذكرها «بتموز» «Tammuz» زوج صباها، وكانت قد علقت وبكت من أجله السنين الطوال. وذكرها «بالالو» «Alalu» النسر الكاسر وذكرها بالراعى «طابولو» «Tabulu» «وايزولانو» «Isullanu» بستانى أيها. فانها قد سخرت من هؤلاء جميعاً وأساءت معاملتهم بصورة لم يسبقها أحد إليها قسوة وصلابة قلب، وأظهر لها خوفه من يكون نصيبه منها كنصيب هؤلاء، لو

انه مد إلى الآلهة الماكرة بالوثام يداه ؛ أو وهب لها بالحب قلبه . غير أن الآلهة قد هاجها الغضب لرفض حبها ، فارتفعت إلى السماء .
ووقفت « عشتار » أمام « عانو » « Anu » أباهما ؛ وأمام « عانو » قالت « أيها الوالد الرحيم : إن غلغامش ؛ يلحظني أينما سرت . أنه عدز هرات تاجي الآلهي » .

ومن حول رواية حب عشتار « لغلغامش » تقوم أسطورة طبيعية ، يغلب أن تكون أسطورة ذات علاقة بفيض ريعي . فان « غلغامش » آله الشمس ؛ أو البطل الذي اختص بالصفات التي يختص بها آله الشمس ، قد تعشقت « عشتار » آلهة الحب ، الآلهة الأم العظيمة ، التي تتعهد برعايتها متوجات الربيع الجميلة . فانا إذا رجعنا إلى حوادثها الغرامية الأولى نقع على قصة « تموز » الخرافية ، التي تقتل فيها « عشتار » حبيب قلبها و صفيها « تموز » ، مشفوعة بقليل من الروايات الميثولوجية المتناثرة المتدايرة . ولا يبعد أن يكون لهذه الاسطورة اعتبارات تنجيمية - استرولوجية - في هذه المرحلة من القصة الكبرى .

«ثور عالو»

ولنرجع إلى سياق القصة . فان « عشتار » في غضبها وسخطها تلجأ إلى « عانو » « Anu » أيها ، « وعاناتو » « Anatu » أمها ، متوسلة إلى الاول أن يخلق ثوراً شديداً قوي ذا مرة ، وأن يرسل به للقاء غلغامش فيقرض « عانو » في البدء طلب ابنته قائلاً إنه لو فعل هذا أصاب القحط والجذب الارض سبع سنين . غير أنه يرضى في النهاية : ويرسل ضد « غلغامش » ثور عظيم اسمه « عالو » - Alu -

أما الجزء الذي يعالج وصف المعركة في الألواح فشوه تشويهاً كبيراً غير أن الظاهر أن المعركة كانت حامية الوطيس ، يخر في نهايتها الثور

السمائي صريعاً بضربة سيف من يد « غلغامش » . وتتطلع « عشتار » في النهاية غاضبة حانقة :

فتذهب « عشتار » وتتسلق أسوار « أرك » الحصينة . وهناك بعد أن ترتقي أعلى قمة من الأسوار ترسل لعنة من لعنائها الأبدية قائلة - « لتكن ملعونا يا غلغامش ، أنت يامن أثرت في قلبي الغضب ، ويامن قتل الثور الذي أرسلته السماء » .

حينذاك يسمع إيباني لعنات الآلهة الغاضبة :

« ولما سمع إيباني هذه الكلمات التي تفوهت بها « عشتار » قطع أو شاج الثور إربا إربا ورمى بها أمامها قائلاً :

« كما غزوته وقهرته سوف أقهرك ، وسأفعل بك مثل ما فعلت به فتملك الغضب « عشتار » وبلغ منها الحق كل مبلغ . أما غلغامش ورفيقه فقد أهديا آلهة الشمس قرني الثور العظيمين ؛ وبعد أن غسلا يديهما في نهر الفرات قفلا راجعين إلى « أرك »

وخرج الناس يحيون البطائن كلها مر بطرق من أطراف المدينة موكب استقبالهما .

أما بقية اللوح فيصف مآدبه أقامها غلغامش ليحيي بها ذكرى انتصاره على الثور « عانو » ويتلو ذلك ذكر بعض أحلام يرويها « إيباني »

أما اللوحان السابع والثامن فقطع وأجزاء . وما حفظ منهما يفتح للوهم والرجم بالغيب في قراءتهما مجالا واسعا . وليس من البعيد أن يكون اللوح السابع متضمناً وصفا للعالم السفلي كما رواه « إيباني » عن غادة الهيكل « أوخوت » - Ukht - وقد خيل له في حلم من أحلامه الكثيرة . وقد لعن « إيباني » هذه الغادة في أحد الألواح ، ولذلك عجل به القضاء إلى الموت . ووصف الأرض السفلي في هذا اللوح ، يشابه وصفاً آخر روى في أصل

آخر من الاصول الميثولوجية القديمة عن هبوط الآلهة « عشتار » إلى « حادس » - **Hades** - وفي الروايتين دلالة على المعتقد القديم في الارض السفلى .

« تعال ، وأنزل معي إلى بيت الظلام ، حيث يسكن « اركلا » **Irkalla** » إلى البيت الذي لا يذهب داخله إلى مكان آخر ، (أو يسلك منه إلى مسلك غيره) إلى الطريق الذي لا عودة منه ، إلى البيت الذي حرم ساكنوه من الضياء والنور ؛ حيث التراب غذاؤهم ؛ والارض لذتهم . إنهم يكتسون كالطيور بالريش . انهم لا يرون النور . انهم يعيشون في الظلام »

موت إيباني

ان هذا الحلم المزعج كان مقدمة ظهر منها أن موت « إيباني » قريب . ولم يمحض على الرؤيا زمان قصير حتى مرض « إيباني » ثم مات بعد ذلك باثني عشر يوماً من ابتداء مرضه . أما طريقة موته فغير بيّنة في الألواح . فان احدي القراءات التي قرئت بها الألواح المهشمة تظهر أن « إيباني » جرح والارجح أن يكون في وقعة حرية ، وأنه مات متأثراً بجرحه هذا . وهناك قراءة أخرى تظهره يقول لصديقه « غلغامش » :

« لقد لعنت يا صديقي ؛ ولذا سوف لا أموت ميتة من يخز في ساحة الحرب قتيلًا . »

والسبب في اختلاف القارئين راجع إلى تهشيم الألواح وتشويهها تشويهاً كبيراً ، والراجح أن تكون القراءة الأخيرة هي الاصح . وهذا رأي الباحث « لويس سبنس » الانجليزى . فان « إيباني » قد أغضب « عشتار » قادرة القادرات ، ولا يبعد أن تكون اللعنة التي أسكنته الارض وأوردته موارد الدمار هي لعنتها . وبموت « إيباني » ينتهى اللوح الثامن . أما اللوح التاسع فكله وصف لحزن « غلغامش » على موت صديقه ووفيه الحميم

نزل في قلب « غلغامش » الخوف من الموت ، فصمم على أن يذهب باحثاً وراء أحد أسلافه « أوت - نابشتيم » فقد يمكن أن يصف له طريقاً يخلصه من راثن الموت الذي لا بد من أن ينشب فيه اظفاره يوماً من الايام . وأشفع الفكر بالعمل ، وسرعان ما خرج ميمما شطر المكان الذي كان يعيش فيه « أوت - نابشتيم » . وكان لا بد من أن يقطع في طريقه مفاوز جبلية موحشة ؛ تسكنها الوحوش الضواري . ولقد حماه من شر هذه الضواري آله القمر « سين » « Sin » فساعدته ذلك على أن يقطع تلك المفاوز في أمن وأن يصل إلى نهايتها سالماً .

وبعد ذلك وصل إلى جبل أكثر ارتفاعاً من كل الجبال التي مر بها ؛ ووجد أن مدخل الجبل محروس باناس « عقاربة » . وكان هذا جبل « ماشو » « Mashu » أي جبل « الغروب » (جبل غروب الشمس) وقد استوى في نهاية الافق الغربي فاصلاً بين الارض العليا والارض السفلى . « ووصل في النهاية إلى جبل « ماشو » الذي تحرس مداخله مسوخ مريعة ، تصل ظهورها إلى مواقع السحاب ؛ وتذهب أعضاؤها الامامية إلى ما بعد « آرالو » « Aralu » وعلى الباب أناس « عقاربة » يحرسونه . أما منظرهم فمرعب رهيب ، وأما لمسهم ففيه الموت المحتوم . أما عددهم فكبير ؛ لانهم يغشون كل الجبال . وهم يظنون يلحظون الشمس من ساعة شروقها إلى مغيبها . ولما رأهم « غلغامش » اسود وجهه خوفاً وفزعاً ، وأفقده بشاعة منظرهم كل حواسه ، فخر صريعاً .

ولما أراد « غلغامش » أن يلج مدخل الجبل وجد طريقه مسدوداً بهؤلاء العقاربة الذين لمسا رؤوا لمحاة الالهة موسومة على محياه ، لم يجدجوه بنظراتهم المخيفة القاتلة ، بل سألوه عن غرضه ، والسبب في مجيئه ، والدنو من

جبل « ماشو » ولما أجابهم على أسئلتهم وأخبرهم أنه يريد الوصول مقر سلفه العظيم « أوت - نابشتيم » ليعرف منه سر الخلود والشباب ، نصحه العقارية بأن يرجع عن عزمه . فقد ذكروا له أن أمامه وادي الظلام الذي لا يمكن أن يقطعه في أقل من أربعة وعشرين ساعة « ١٢ كاسبو » « 12 Kasbu » قبل أن يخرج إلى النور مرة أخرى . ورفضوا أن يسمحوا له بالدخول . غير أن « غلغامش » توسل اليهم بدموعه ، وبعد لآي ، قبل المسوخ أن يأذنوا له في الدخول . ولما جاوز « غلغامش » باب جبل « الغروب » (بفضل كونه أحد آلهة الشمس) دخل في وادٍ مشد الظلام عظيم الحسكة ، وظل يضرب في مفاوزه « ١٢ كاسبو » « 12 Kasbu » أربعة وعشرين ساعة . ولما شارب نهاية هذا الوادي أخذ الظلام يقل رويداً رويداً حتي خرج إلى وضح النهار ؛ فوجد نفسه في حديقة غناء واسعة الأرجاء ، التفت أشجارها ودفت مياهها ، ومن بين أشجارها شجرة الآلهة ، التي وصفت في المثنى الأصلي بما يلي :

« تحمل الاحجار الكريمة بدل الثمار ؛ وقد تدلت فروعها وأغصانها على أجمل نظام رآته عين . وقد ثقلت بالأثمار التي تخطف البصر إذا حلق فيها الناظر » .

وبعد أن ملأ « غلغامش » ناظريه من جمال الحديقة ، انطلق يطلب الشاطئ .

ويصف اللوح العاشر اتصال البطل بآلهة البحر « سابيتو » « Sabitu » وكان من عاداتها إذا قدم أحد عليه مظاهر الألوهة ، وفي قلبه حزن ، وظهر كأنه قد أنهكته الأسفار ، دخلت قصرها وجرت وراءها رتاج الباب . غير أن « غلغامش » وهو يعلم أنه في حاجة إلى مساعدتها لكي يصل إلى مقر « أوت - نابشتيم » أخبرها خبره وهددها يأساً بأن يقتحم عليها باب القصر إذا

لم تفتحه . وبعد لأي رضيت « سايتو » أن تنصت له طالباً منها أن تدله على طريق « أوت-نابشتيم » . وكان شأن هذه الآلهة معه كشأن العقاربة إذ رأت أنه لن ينفك عن غرضه ، فأمرته أن يذهب الى « آداد — إيا » **Adad-Ea** ملاح « أوت-نابشتيم » الذي لا يمكن بغير معاونته أن يتقدم « غلغامش » خطوة واحدة في سياحته القصية . ولما لاقى « غلغامش » « آداد — إيا » صحه أن يرجع . ولكن البطل كان على تصميمه وعناده، فبدأ يحطم سفينة الملاح بفأسه ، فاضطر الملاح أن ينفذ رغبة « غلغامش » فأرسل مساعده الى الغابة ليحضر اليه ما يصلح به سفينته ، وبعد اصلاحها سافرا معاً .

غلغامش وأوت نابشتيم « ١ »

ولقد أخذ « أوت-نابشتيم » العجب عند ما رأى « غلغامش » قادماً اليه . أما البطل « غلغامش » فكان قد أصيب بمرض عضال بحيث أصبح غير قادر على أن يغادر السفينة . غير أنه أفضى الى « أوت - نابشتيم » المؤله — وكان على الشاطئ منتظراً — برغبته في أن يعرف السر في الحصول على الحياة الخالدة . غير أن بطل الطوفان كان حزيناً حزناً عميقاً . فقال له « إن الموت هو الكأس الدائر على شفاه بنى الانسان - » وكذلك لم يعط الانسان من الكفايات ما يدرك بها الساعة التي سوف تظله فيها ظلال الموت . إن « الانوناكي » **Annunaki** - أي كبار الآلهة - هم الذين يحددون الاقدار . ومعهم « ماميتوم » **Mammetum** « موزع الحظوظ » . فهم الذين يقدررون الموت والحياة . غير أن ساعات الموت غير معروفة »

وتمتد القصة الى اللوح الحادي عشر من غير اضطراب أو تهويز . وفيها يصغى « غلغامش » ، مملوءاً شكا ، الى أقوال سلفه العظيم . « انى أرى » « ياوت - نابشتيم » أن مظهرك لا يختلف عن مظهرى : فانك

مثلي ، لا تباينني في أى شيء . وان فنك ليشابهه في ، وقلبك يتحرق للقتال
فكيف بك قد دخلت حظيرة الآلهة كيف وقعت على سر الحياة »

أسطورة الطوفان

ردا على هذه الاسئلة يروي « أوت-نابشتيم » أسطورة الطوفان البابلي .
وهي أسطورة إذا رويت وحدها كونت قصة مستقلة عن قصة « غلغامش »
بل هي أسطورة ميثولوجية كبيرة الخطر عميقة المعني .

ان نذير الطوفان قد غشى « أوت-نابشتيم » في حلم من الاحلام . سمع
صوت الآله يقول :

« أنت يا رجل » شوريباق « **Shurippak** » يابن « أوباراستوتو »
« **Ubara - tutu** » حطم بيتك وأغفل متاعك وملكك وأنج بحياتك .
اترك امتعتك ونج حياتك واجمع من كل بزررة حية من كل نوع وأدخل
بها في الفلك » .

أما السفينة فكان لا بد من أن تصمم وتبنى بكل عناية بارشاد « إيا »
« **Ea** » وتعاليمه . ولما تكلم الآله أنذر « أوت-نابشتيم » . الطاعة لأوامره القدسية .
غير أنه كان في حيرة مما يجيب به الناس إذا سألوه عن السر في ما يتخذ من
أهبة . فألهمه « إيا » بما يجيب به إذا سئل .

« ان » بعلا « - **Bel** » طردني لانه يبغضني »

أما الغرض من هذا الجواب فكان ظاهرا جليا . غير أن الاسطر التي
تأتي بعد ذلك في اللوح وهي التي تكمل الكلام فناقصة مبتورة .

أما غرض « إيا » مما ألهم به « أوت - نابشتيم » ان يصرف الناس عن
الشك في أمر الفلك بأن يعرفوا أن « أوتا » انما يبنى الفلك ليستطيع
بعد بنائه الهرب من غضب « بعل » الذي سوف يحل به وحده اذا هو لم ينج
بنفسه . وانه من الواجب عليه أن يتنبأ للناس بهطال المطر ، غير انه يوحى

اليهم أن تهطله علامة خير وبركة سوف ينزلها « بعل » على أهل «شوريباك» لان « أوت نابشتيم » سوف يفارقهم .

الفلك البابلي

واستخدم « أوت نابشتيم » كثيراً من الايدي في تشييد الفلك . وفي أربعة أيام جمع المواد وأقام بناء السفينة ، وفي اليوم الخامس عومها ، وفي اليوم السادس شحنها ؛ وكانت على استعداد في اليوم السابع . وعلى بدن السفينة التي كانت تبلغ مائة وعشرين ذراعاً (120 Cubits) (١) بنى الظهر (٢) من ست طبقات ارتفاعها مائة وعشرين ذراعاً (Cubits) قسمت كل منها الى تسع حجرات . وجعل ظاهر السفينة محكما حتى لا ينفذ منه الماء إذ طلاها بالقار ، كما طلى داخلها بمادة أخرى . ولأجل أن يعلن « أوت - نابشتيم » عن اتمام العمل في السفينة أقام مهرجاناً عظيماً ؛ كمثل المهرجانات التي تقام عادة عند استهلال السنة الجديدة ؛ فذبح الثيران ، وجهر كميات كبيرة من الخمر والزيت . وخضوعاً لأمر « إيا » أحضر « أوت - نابشتيم » الى السفينة كل ما يملك من ذهب وفضة ؛ ثم من كل بذرة حية ؛ وكذلك كل أسرته وأدواته المنزلية ؛ ومن كل مواشى البر ووحوشه ؛ ورجال الفنون الذين كانوا يعملون معه .

وكان تهطل المطر اشارة « لأوت » لكي يدخل الفلك وأن يغلق عليه الباب . ولقد استمر المطر يهطل طول الليل وعند الفجر . ظهرت في الأفق غيامة سوداء . وفي وسطها « رامن » (Ramman) يرسل الرعود ، وقد تقدمه « نابو » - Nabu - « ومردخ » - Marduk - مارين كروسلين ؛ يجوبان الجبال والسهول . وأرسل « أراجال » - Uragal -

١ - - مقاس معروف يعتبر من أول الفصل الأوسط الى طرف الاصبع الوسطي

٢ - في النص العبراني « صوهر » وهو في الراجع ظهر ، وكذلك في الرواية السكندانية ، لا كما ذكر في التوراة العبرية فإنه خطأ ظاهر .

الإشارة السماوية ؛ ومضى « نينيب » - **Ninib** - يشق الأفق ويرسل الرياح والانواء تتفجر تفجراً . وحمل « أنوناكي » - **Unaunaki** - مشاعل موقدة ؛ كانت أضواؤها تشعل الأرض لشدها ناراً . أما الأعاصير فكان يرسلها « رامان » - **Ramman** - فتصعد من الأرض إلى عنان السماء فحجبت الضوء والنور وخيم على الأرض ظلام دامس .

واستمر الظلام والفوضى يسودان الأرض يوماً كاملاً . وعجز الناس عن أن يرى بعضهم بعضاً . ولقد كان الفزع شديداً حتى أن الآلهة في السماء تملكهم الخوف ونزل بقلوبهم الفزع الشديد ؛ فكانوا « ككلاب الصيد » يكون خيارى آسفين على أنهم اشتركوا في تخریب الأرض وأخذوا بضلع في افناء النوع البشرى .

واستمرت الانواء ستة أيام وست ليالٍ حسوماً ، وانقطع المطر عن الهطال في اليوم السابع وبدأ الطوفان يتناقض . ثم يقول « أوت نابشتيم » : « نظرت في البحر وصرخت بكل ما في من قوة صرخة فزع وحسرة لآتني رأيت أن كل النوع البشرى قد تحول إلى رماد- « صالصال كالنفخار » **Clay** - وتبدلت الحقول الغضة إلى أحراش وضحاضح . وفتحت النافذة فوق الضوء على وجنتي ؛ غير أني نزلت من النافذة إلى ظهر السفينة ؛ ثم وقعت صعباً أبكى مر البكاء . وعلى وجنتي جرت شؤونى هتانة فائضة ، إذ نظرت إلى الدنيا فما وجدتها إلا بحر اخضاً متلاطم الامواج . »

طبور الاستكشاف

وفي النهاية استوت السفينة على قمة جبل « نتسير » - **Nitsir** - وهنا يختلف الارخيولوجيون في قراءة الألواح . ففي قراءة منها تسمع - « أنه بعد اثني عشر يوماً ظهرت الأرض » . وفي أخرى نجد أنه « بعد مسافة (١٢ كاسبو) ظهرت اليابسة » وفي أخرى أن الأرض ظهرت بارتفاع اثني عشر

ذراعا (Cubits) فوق الماء . ومهما يكن من هذا الامر ؛ فان السفينة ظلت ستة أيام فوق قمة الجبل ، وفي اليوم السابع أطلق « أوت - نابشتيم » حمامة . غير أن الحمامة لم تجد موضع قدم تقف فيه ؛ فرجعت إلى السفينة . فارسل خطافا ، فرجع اليه ثانية ؛ إذ لم يجد مكانا يستقر فيه . وأخيراً أرسل غراباً . ولما كان الوقت قد حان لان تنحسر المياه من فوق الأرض ، اقترب الطائر من السفينة وظل ينطق متهادياً مترنحاً ولكنه لم يدخل إليها . وعندئذ احضر « أوت - نابشتيم » أهل بيته وكل أمتعته إلى الفضاء وقدم إلى الآلهة قربانا من حطب وخشب السيدر وعطر البخور . وارتفعت رائحة العطر إلى مقر الآلهة فاجتمعوا « كالذباب » - على ماتصفهم الرواية - من حول القربان . وكان من بين الآلهة « عشتار » سيدة الآلهة ، رفعت عقدتها الثمين الذي أعطاه لها « عانو » وقالت

« ما هذه الآلهة ! قسما بما حول عنقي من لآلىء » لايزلازولى lapis-lazuli - وجواهره ، لا انسى أبدا ولا أحملن ذكرى هذه الأيام في نفسى ولا أنساها أبدا الدهر . ليحضر الآلهة إلى القربان ، ما عدا « بعلا » فإنه لن يحضر لانه رفض أن يستشير الآلهة وارسل على الأرض الطوفان ، واسلم بكل شعبي إلى الدمار .»

ولقد غضب « بعل » اشد الغضب عند ما عرف أن بقية من الانسان لا تزال حية فوق الأرض ، و اراد أن يهلك أوت - نابشتيم واهله . غير أن « إيا » صرفته عن عزمه و دافعت عن صفيها « أوت » لأنه لم يستشر الآلهة عند ما أمر بحدوث الطوفان العام و افناء الاحياء ، ونصحت اليه بأن لا يعاقب الا المذنبين بذنوبهم دون بنى الانسان في مجموعهم . وأخيراً اقتنع « بعل » . فجاء إلى سفينة « أوت » التي كانت تحمل البقية الباقية من النوع البشرى ، وأخذ بيد « أوت - نابشتيم » وزوجه وقادهما إلى العراء خارج السفينة

حيث انعم عليهما وجابهما البركة . ثم يقول « أوت » :
« ثم قادوني بعيداً الى مصب احد الانهار ، وأمروني بأن اعيش هناك »

هذه هي القصة التي رواها أوت نابشتيم « للبطل غلغامش » . ولا يظهر
للطالع على القصة سبباً في افناء النوع البشري اللهم الا العداء الذي استحكم بين
البشر وبين الآلهة . وعلى الاخص بين أبطال بني الانسان وبين الآله المحارب
« بعل » الكبير . ولكن يظهر بجلاء من سياق القصة ان « مجمع الآلهة » قد
قرر تخريب مدينة « شوريياك » وحدها ، وانه لم يوافق على افناء النوع
البشري . ولا مرأى مطلقاً في أن هذه القصة عبارة عن اسطورتين تداخلتا
على مر الزمان ، ثم اصبحتا من بعد قصة واحدة تدور حول بطلين أولهما
غلغامش بطل « أرك » وأوت- نابشتيم سلفه العظيم ؛ الذي رفعته الآلهة
الى مصافهم .

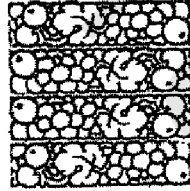
وما يدل واضح الدلالة على قدم هذه القصة ان الباحثين قد عثروا على
لوح بجوار قرية ابي حيه - « مدينة سيبار » Sippar قديماً- يرجع تاريخه الى
٢١٠٠ ق . م .

وعلى الرغم من أن هذا اللوح مشوه تشويهاً كبيراً ، فليس من الصعب ان
تستدل من قراءته على مشابهات تعرف منها اواصر العلاقة بين الرواية التي
تروى فيه ، وبين قصة « غولغامش » .

ولقد ذكر « بروسوس » - Berossus - ترجمة لاسطورة الطوفان في
تاريخه المعروف ، وقد تبدل فيها اسم « إيا » باسم « كرونوس » Chronos
« وأوت- نابشتيم » بالملك « اكزيسوتروس » - Xisuthros - ومدينة شوريياك

بمدينة «سيار» . (١) وفي هذه الرواية لا يمنح الخلود للملك وزوجه وحدهما بل لابنته وملاحه أيضا .

الى هنا نصل الى الحد الذي لا يجب علينا أن نتعداه . فلا شجرة الحياة التي أخذها غولغامش وسرقها منه الافعوان في الطريق ؛ ولا طلبه الخلود من «أوت» ؛ ولا وصوله الى «أرك» مرة ثانية ، بمفيد لنا في سياق هذه القصة شيئاً ولا هو بضروري لسياق البحث . اما الذي حدى بنا الى ذكر هذه الاسطورة بالتطويل فضرورة سوف تظهر في خلال ما سوف نمضي فيه من بحوث .



١ - يظهر أن القصة التي نقلها العلامة سايس في آخر كتابه - **Early Israel** - قد اعتمد فيها على هذا اللوح لأن سياقها يخالف هذه القصة ويذكر فيها اسم الملك « اكزيستروس » بدل - أوت - ناشتيم - وكنا قد ذهبنا من قبل في مجلة العصور الى القول باحتمال الاختلاف في قراءة الاسماء فلما عثرنا على هذا النص لزمنا اثباته هنا بياناً للحقيقة . أما الاستاذ مكنتزي فيغير اسم (أوت) باسم (بير) - Pir -

مقارنات

مقارنات

اقتصرنا في الصفحات السابقة على التقديم لهذه الرسالة وعلى شرح الأوليات الضرورية التي هي بمثابة أساس لما سوف نمضي فيه من مقارنات . على أننى آمل أن أجد من اتساع صدر القراء لهذه الرسالة وتقبلهم إياها ، ما يشجعنى على المضي في وضع غيرها من الرسائل الماثلة لها ، وعلى الأخص في الأساس الاعتقادية البحتة التي قامت عليها النصرانية منتحلة من قصة موسى ومن تاريخ العبرانيين منذ هبوطهم مصر الى دخولهم أرض الميعاد . فأنى أعتقد اليوم ، وبعد أن استعمقت في قراءة تاريخ موسى ، أن النواحي التي تختلف فيها النصرانية عن اليهودية كما ألقاها موسى على شعب الله حين كان يعلمهم التوراة في التيه ، أقل بكثير من النواحي التي توافق هذه فيها تلك . لا من حيث المراسيم وطرق العبادات والمعاملات ، بل من حيث العقيدة الخالصة . فقد قال موسى مثلاً بأنه ابن الله وحيناً قال إنه الله . ذلك في حين أن الصبغة الاشتراكية التي اصطبغت بها النصرانية هي بذاتها الصبغة التي اصطبغت بها اليهودية . غير أنك لا تقع على هذا في أسفار التوراة ولا في أسفار العهد القديم ، بقدر ما تقع عليه جلياً واضحاً في التلمود وفي التفاسير التي فسر بها الربانيون والبطارقة من العبرانيين .

هذا ما أوئل أن يكون موضوع بحث أضحه في مستقبل الأيام . وعندى أن هذه المقارنات من أخص ما يجب أن يكتب عليه الباحثون في هذا العصر ، تحقيقاً للاتجاه الحديث في العلم والمباحث التاريخية .

فاذا رجعنا الى الموضوع الذى أردنا أن نضالع به في هذا الموطن ، وأردنا أن نمضي في مقارنات نقطعها من الآثار القديمة ، كان لامندوحة لنا عن الرجوع

إلى القصص التي روتها التواريخ المعروفة أو التي تنوقلت باللقاح عن الأئمة السابقة، لثبت أن لهذه القصة أصلاً ميشولوجياً عند الأئمة القديمة، أخذ يتنقل في أرحام الدهور، وتنتحله أمة بعد أخرى، حتى بلغ في القرن السادس بعد الميلاد مبلغه الأقصى، فصب في القالب الذي نقع عليه في القرآن ..

على أننا نريد أن ننبه هنا على أن بحثنا هذا ليس له بالدين صلة، وليس له بالعقائد نسب. فهو بحث خالص لوجه الحقيقة، لأهل الدين أن يؤولوا منه ما يشاءون، ولا حرار الفكر أن يستنتجوا منه ما يستنتجون. وليس المقام مقام تقرير ولا هو مقام اثبات أو نفى. بل هو مقام رواية للقصص المختلفة التي قصت في الطوفان، ومقارنة بعضها ببعض تلميحاً لا توضيحاً، وسياًقاً لقياساً، وللحقيقة لا للدعاية. لهذا نمضي في هذه المقارنات مستهدين بهذه النزعة ولنا في نهايتها كلمة لعلها تكون فاصلة صريحة، لا نحتاج بعدها إلى استرسال في شرح. أو اطناب في بيان.

في كل التقاليد الميثولوجية، قديمة وحديثة، تقع على قصص في الطوفان تختلف في التفاصيل والاضاع، ولكنها تتفق في الجوهر والغاية فقد أفنى الطوفان أمة خيالية قيل أنها عمرت أرض الاغريق القديمة في العصر البرونزي، وكانت أمة اتصفت بكثير من الخشونة والقسوة. فكان السبب في تخطيطها وافتائها مشابهاً للسبب الذي أفنيت من أجل عاد وشمود. والفرق أن الاولين أهلكوا بالمياه الطاغية، والآخرين أهلكوا بريح صرصر عاتية. وروى أن «زوس» الاله اليوناني المعروف قال «لهمز» - «سوف أرسل على الارض مطراً عظيماً لم يصب الأرض مثله منذ أن استقر الكون على صورته هذه، وان النوع البشري يرمته سوف يفنى من جراء ذلك. فان ظلمهم يتعبنى ويمضي»

وكان الآلهان زوس وهرمز قد تنكرا في صورة بشرية ، فاضافهما رجل عجوز يقال له « ديو كاليون » وامراته « بيرا » وأحسنا وفادتهما وقاما على خدمتهما والعناية بأمرهما . فلما أتى الطوفان نجيا جزاء احسانهما للآلهين الكبيرين . وكانت نجاتهما بأن نصح « زوس » للعجوز بان يبني فلكا من خشب البلوط ويخزن فيه من المواد الغذائية قدرا كافيا . فلما تم بناء الفلك ، دخل الزوجان فيه وأغلقا وراءهما الباب . وهنا فتح « زوس » ينابيع الغور الأبعد وآبار الينابيع السماوية ، وأخذت السماء تمطر وظلت في تهطالها أربعين يوما وأربعين ليلة كاملة من غير انقطاع . وبذلك فنى القليل البرونزي ؛ ولم يسلم منه حتى الذين لجؤوا الى قمم التلال العالية . واستوى الفلك على جبل « بارناسوس » - Parnassus - ولما غيض الماء خرج الزوجان من الفلك وهبطا من فوق الجبل ولجأ الى كهف اتخذاه سكنا لهما . (١)

أما في الميثولوجيا الهندية فتجد عقيدة أن الدنيا لا بد أن يفنيها طوفان مجتاح ينتابها في نهاية كل دور من الأدوار الكونية . (٢) أما هذه الأدوار فاربعة:

الأول : دور الكريتا أو العصر الكامل - Krita

والثاني : دور الترتيا - Treta

والثالث : دور الدوا بارا - Dwapara

والرابع : دور الكالي أو عصر الشقاوة والفساد - Kali

(١) راجع كتاب The Muses' Pageant تأليف الأستاذ الكبير هو تشنسون W. M. L. Hatchinson ص ٥ وما بعدها .

(٢) في هذه العقيدة شبه بفكرة النكبات الجيولوجية التي كان يعتقدها ويؤيدها الى عصر قريب فئة من كبار علماء أوروبا بالمعدودين ومنهم كوفيه المعروف . وقامت هذه الفكرة على أن الحياة كان ينتابها نكبات تذهب بكل أثر لها على الأرض وان طوفان نوح آخر هذه النكبات ، ثم تأخذ الحياة في التكاثر من بعد ذلك بفعل الخلق المستقل . وذلك ليعلموا تباين الصور الحفرية التي كانوا يرونها منطمرة في الطبقات الجيولوجية .

ولا جرم أن هذه الأدوار تشابه بالتقريب الأدوار المعروفة عند اليونان والامم الصليبية (١) وكذلك نجد اشارات في الآداب السنسكريتية تدل على الاعتقاد في أن العالم قد دمر ، لان النوع البشري كان قد تكاثر فوق الكرة الأرضية الى حد غير مرغوب فيه . فقد ذكر أحد حكماء الهند أنه عندما بلغ تكاثر الناس حدا مروعا ، وناءت الارض ظلما بما حملت ، اضطرت الى أن تنخفض عن مستواها مائه « يوجانا » - *Vojana* - ولما شعرت فوق ذلك بألم شديد يقض أطرافها ، بل فقدت حواسها لثقل ذلك الحمل الكبير الذي ارتكز فوقها ، لم تجد من وسيلة في وسط كارتتها هذه الا أن تلجأ الى حماية « نارايانا » - *Narayana* - آله الآلهة وكبيرهم » (٢)

كذلك تجد في الآداب السنسكريتية أن « مانو » ، وهو عندهم الانسان الاول ، قد ذكر بان الآله في صورته سمكة قد أخبره بان الارض لا بد من أن تصفي وتنقى ، فأوحى اليه بان « يبني سفينة عظيمة قوية الدروع ويجهزها بحبل طويل » . فلما ارتفعت المياه ، قادت السمكة السفينة بواسطة الحبل في وسط الخضم المتلاطم الامواج ؛ وما زالت بها حتى رست على قمة « هيمافات » التي لا تزال تسمى « نوباندا » - *Naubandha* - ومعناها المرفأ أو الميناء . وكان « مانو » مصطحبا معه سبعة من « الريشي » - *rishi* - وهم فقراء الهند وأهل الباطن عندهم من النساك المتعبدين (٣) .

ولا جرم أن هذه الاسطورة الهندية تزودنا بما نستطيع به فهم التصور

(١) راجع كتاب الميثولوجيا والأساطير الهندية Indian Myth and Legend

ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) راجع كتاب « - فانا بارفا » Vana Parva قسم « الماها بهاراتا »

Mahabharata Section: ترجمة « روى » Roy - ص ٤٢٥

(٣) راجع كتاب الميثولوجيا والأساطير الهندية ص ١٤١ .

السوميراني القديم في حقيقة «إيا» - «هيا» - التي مر بنا ذكرها من قبل في سياق الاسطورة البابلية . فان الاسطورة الهندية تنص على أن هذه السمكة عند ما كانت صغيرة لجأت الى «مانو» خشية أن يتلعها السمك الكبير وبذهب بها ، فبقيت به أن يحميها وان يظللها بعنايته . فرفعها «مانو» الحسكيم من النهر ووضعها في جرة . غير أنها أخذت تكبر في الحجم ؛ فنقلها الى وعاء كبير ، ومن ثم الى نهر «الكنج» (١) ثم شكت السمكة «مانو» مع مضي الزمان من أن النهر قد ضاق بها وأنه لا يسعها ، فاخرجها منه الى المحيط الاوسع . وجزء هذه الخدمات تجلي الآله في صورة سمكة وأخبر «مانو» بما سوف ينتاب الارض من طوفان محتاح مدمر ، ثم اقتاد السفينة في وسط السكارثة حتى استقرت على رأس الجبل . فاذا كان لهذه الاسطورة الهندية أصلاً بابلياً كما هو مرجح . جاز لنا أن نقضى بان روح نهر الفرات التي كانت تدعى في أساطير بابل - «روح الارض» - و - «روح المكان» - كانت تتصور في هيئة سمكة ؛ وان نماءها في النهر يعمل فيضانه اذ يضيق بها على سعته . على أن التصور غير قاصر على أهل بابل والهند ؛ ففي كثير من القصص الميثولوجي تقع على تعليقات لحدوث الفيضانات العظيمة بان «وحشا عظيماً لا بد من أن يكون قد لجأ الى البحر أو البحيرة أو النهر فعلا مأوه وفاضت جوانبه . (٢)

أما في الاقاصيص الصلتية (الابولندية) فان الطوفان ينسب الى المسماة «سيشاي» - Cessair - حفيد نوح ؛ لما منعت عن أن تختص بمكان في الفلك فهربت الى حدود الدنيا الغربية كما اشار عليها صنمها الذي كانت تعبد . (٣)

(١) النهر المقدس عند الهنود ولعل تقديسهم له آت من هذه الخرافة

(٢) راجع « ما كنزي » ص ٢٧ و ٢٨ Myths of Babylonia

(٣) راجع كتاب لنستر Book of Leinster وتاريخ أيرلندا تأليف كيتنج

وكان أسطولها مكونا من ثلاث سفن ، غرق منها اثنتان قبل أن تصل
شواطئ إيرلاندا . أما الذين نجوا فكانوا فضلا عن « سيشاير » أباهما « بيث »
- Bith - ورجلين آخرين ؛ وفنتان - Finten - ولادرو - Ladu -
وخمسين امرأة . وكلهن قضين نحبهن على التلال ما عدا « فنتان » فقدر لها
البقاء إلى العصر الذي شهد أهله قدوم « بارثولون » - Partholon - الجبار
من أرض أخرى .

كذلك تقع عند المصريين على أسطورة في الطوفان سجلتها رواياتهم
الميثولوجية . فان « رع » آله الشمس لما كبر وهرم عندما كان ملكا مسلطا
فوق الارض ؛ بدأ الناس يلوكونه بالسنتهم . فدعا الآلهة الى جمهرة وقال لهم :
« لست براغب في أن اقتلهم (أى رعيتهم) قبل ان اعرف ما سوف تقولون
فيهم » . أما « نو » أبوه ، وكان آله المياه السرمدية القديمة ، فقد اشار بافناء
النوع البشرى جملة .

فقال « رع - » اجيبروا دعوتي واجزوا إلى رؤوس التلال ، اذ كانت قلوبهم
مقدمة بالخوف من جراء مارموا به « رع » من بذى الكلام .
فذهبت الآلهة « هاتور - سنخت » . عين رع - في إثرهم واخذت تقتل
النوع البشرى فوق التلال التي لجأ أفرادها اليها . غير أن « رع » اراد بعد ذلك
أن يحصى البقية الباقية من البشر فأمر بتربان عظيم يقدم للآلهة ، مكون من
خمير القمح مزوجاً ببعض الاعشاب ودماء بشرية . وصب هذا الشراب اثناء
الليل فوق الارض - « فلما أصبح الصباح وأتت الآلهة لتباشر مهمتها ،
وجدت أن الحقول تفيض بهذا الشراب الشهى فشربت وطربت ورقصت
قلوبهم قرحاً ، وذهب الآلهة بعد ان انتشوا « سكارى » ولم يعيروا النوع
البشرى اهتماماً . » (١)

(١) راجع كتاب ديانة المصريين القدماء . تأليف ويدمان ص ٥٨ وما بعدها

ولا خفاء أن الاسطورة المصرية تشير الى فيضان النيل السنوى ، والى
الدماء البشرية « فى » نخيرة القمح « وهى عبارة عن دماء آله القمح المقتول ،
أوالى من مثله من أهل الأرض .

اما الطوفان المكسيكى فاحدثه « شمس الماء » الذى قذف فجأة بكل الرطوبات
التي كان قد استمدتها من الأرض ، وارسلها فى صورة بخار ففى ذلك كل
الاحياء وكل صورة الحياة

و تعتقد قبائل « الناهوا » **Nahua** - المعروفة باسطورة طوفانية تشابه من
وجوه كثيرة الاسطورة البابلية التى رواها « أوت نابشتيم » . وعندهم أن
الآله « تيتلا كاهوان » **Titlacahuan** قد أوعز الى رجل يدعى « ناتا »
Nata بان يصنع فاسكا صغيراً بان يخوف جذع شجرة ، لينجوه به من طوفان
سوف يعم الأرض ويهلك من عليها . وبذلك نجح هو وزوجه « نينا »
Nena - وقدما سمكة قمر بانأوهما فى النملك ناستثارا بذلك غضب كبير الآلهة عندما
علم بانهما نجيا من الطوفان ، كما غضب « بعل » البابلى عندما علم بان « أوت
نابشتيم » قد نجح من غضبه و بقي بعد الكارثة السكبرى .

وفى البرازيل ارسل كبير الآلهة « مونان » **Monan** نارا عظيمة لتحرق
الدنيا وسكانها الاشقياء وتدمرهم تدميراً . فبادر ساحر من كبار السحرة الى
استنزال امطار غزيرة ليطفىء النار ؛ وظلت الامطار فى تهطاتها حتى اصاب
الأرض طوفان عظيم .

و يعتقد هنود كاليفورنيا فى اسطورة طوفانية حلت بالعالم لتفنى الشعب

الاول، وكان ظالماً قاسياً فاسداً . ويعتقد هنود الشمال الغربي بأنهم سلالة اسرة نجت من طوفان عام . وكذلك تقع بين سكان « الدنيا الجديدة » الاصليين على صور مختلفة من الاعتقاد في الطوفان وحلول كارثته بالأرض . وكذلك يتفق معتقد الامريكيين الاصليين في أن المخاوق الاول لم يستطع العيش على الأرض مع معتقد البابليين . وهناك قصة عن « بريسوس » Berossus سياقها أن الخلق الاول لم يفلح لان الحيوانات لم تستطع ان تتحمل الضوء فهلكوا وفنوا . (١) وهنا تقع على الجرثومة الاولى التي فرخت من بعد فكرة « العصور الدنيوية » أو « الادوار السكونية » والتي بلغت مبالغها القصوى بين الهنود واليونان والصلتين (الابرلانيين) وظهرت جليلة في صورهم الميثولوجيه .

فاذا عدنا الى قصة الطوفان كما رويت في سفر التكوين رأينا أنها تشكل مادة واسعة للمقارنة بالقصة البابليه حيث تتفق القصتان في اسسهما الجوهرية كما تختلفان كثيراً في التفاصيل . (٢)

إن الثقافة البابلية لم يقتصر مدها على الغرب حيث غزت اطراف فلسطين، ومن ثم الى بلاد اليونان في خلال العصر الفينيقي ، بل امتدت ايضاً الى الشرق من « عيلام » الى المرتفعات الأيرانية ، ومن ثم الى الهند . ولقد اشار كثير من ثقاء الباحثين الى المماثلة التامة بين الميثولوجيا السوميرية

(١) راجع كتاب « ديانة بابل وأشور » The Religion of Babylonia

and Assyria للاستاذ بنشر Pinches ص ٤٢

(٢) راجع كتاب « ديانة بابل » Babylonian Religion تأليف كنج King

وكتب الأستاذ « بنشر » العهد القديم في ضوء المدونات التاريخية وأساطير آشور وبابل

The Old Testament in the Light of Historical Records and Legends of Assyria and Balylonia.

والميثولوجيا الهندية. (١) وفي العصر الذي اخذت تؤلف فيه الاغنيات الآرية التي تغنى بها غزاة الهند من الآريين، كان الآله « فارونا » Varuna آله السماء وهو يشابه عند الهنود « إيا ومترا » عند البابليين، قد اخذت شمس مجده في الآفول — وكانت هنالك مؤثرات ثقافية أخرى تعمل في الخفاء ومن وراء حجاب. فبينما كانت بعض القبائل الآرية تدفن موتاهما في بيوت « فارونا » الحجرية، كانت قبائل أخرى تتصرف في موتاهما حسب شريعة « أغنى » Agni آله النار بعد ان اتخذوه آلهاً يعبدونه ويتقربون اليه زلفي. وحوالي نهاية العصر الفيدي (٢) وقعت غزوات جديدة فتح بها جوف الهند، فنقل الغزاة معهم معتقدات جديدة، منها تقمص الارواح وتناسخها وادوار الكون الزمانية. وكذلك أخذ نجم الآلهات في الصعود، كما اخذ نجم آلهة « الفيدا » في الآفول مرتدين الى منازل ثانوية تحت رئاسة براهما وفشنو وسيفا. ولا شك في ان هؤلاء الغزاة كانوا قد تأثروا بالمعتقدات البابلية واتحلوا الكثير منها قبل ان يهبطوا بلاد الهند. فمذاهبهم في ادوار الكون الزمانية مثلاً والتي سموها « اليوغا » Yoga تذكرنا على الاخص بالفكرات الفراتية (٣) في الزمان والمكان. حتى أن الثقة الثابتة مستر « روبرت براون » الصغير قد أظهر أن المذاهب المعروفة في « يوم براهما » في الهند تشابه مشابهاً تامه نظاماً فلكياً ظل ثابتاً في أرض « بابل »، تلك الأرض التي كانت مغرساً لنظرية الادوار الكونية على الارجح (٤)

(١) راجع كتاب Myths of Balylonia and Assyria تأليف الأستاذ

مككنزى Mackenzie

(٢) نسبة الى الفيدا Veda من كتب الهند المقدسة

(٣) نسبة الى نهر الفرات والأراضي الواقعة حوله.

(٤) راجع كتاب Primitive constellations تأليف « روبرت براون »

على أن الشعوب الاجنبية التي تأثرت باساليب الفكر البابلية ، لم تبقى طوال ازمانها في حالة استعباد عقلي . فان الفكر الانساني قد تنبه باتتجال المذاهب الدينية ، اكثر مما استعبد وخضع وصدى تاراه . لهذا ترى ان الفكرات المتعلقة باسرار الحياة و الموت ، قد تطورت تطورات كبيرة ، وعلى الاخص في البقاع التي لم تتمكن فيها سلطنة الكهنوت البابلي من حيث المراسم التعبدية والقيود الدينية ؛ في شل حركة الفكر . وعلى هذا نجد الحال تماماً إذا نحن رجعنا الى التصورات المتباينة المتناقضة التي تنسب عادة الى بطارقة « الفيديا » وصور الميثولوجيا السوميرانية . فان « اوت نابشتيم » ، نوح البابلي ، وغلغامش الشبيه بالآلهة ؛ في الميثولوجيا البابلية ، يقابلهما في الميثولوجيا « الفيديا » آله الموتى المسمى « ياما » Yama . والمعتقد ان ياما كان « الرجل الأول » وهو مثل « غلغامش » خرج في سياحة طويلة مجتازا الجبال والوديان والبحار ليستكشف « الفردوس » وتذكر التراتيل الفيديا أنه مستكشف « السيل » أو « الطريق » الموصل الى أرض « البتريس Pitris » ، اى الآباء ؛ وهى الجنة التي يجتاز موئى الهنود الذين لم يحرقوا ، الطريق اليهامشياً على الاقدام . وانك لتجد ان الآله « ياما » لم يفقد على طول الازمان صفاته وخصائصه الاصلية . فهو في الاشعار الحماسية والملاحم الهندية الكبيرة ، كما هو في اسفار « الفيديا » سائح سرمدى على طول الزمان (١)

(١) راجع كتاب الميثولوجيا والاساطير الهندية الفصل الثالث واليك الامثال

Him who along the mighty heights departed,
Him who searched and spied the path for many,
Son of Vivasoat, gother of the people,
Yanra, the King' with sacrifices worship.

Rigveda, X, 14, 103.

To yama, Mighty King, be gifts and homage paid,
He was the first of men that died, the first to brave.
Death's rapid rushing stream, the first to point the road.
To heaven, and welcome others to that bright abode.

Sir M. Monier William's Translation.

وقد وضعت هذه الترجمة تحت عنوان « حكمة الهند » Indian Wisdom.

وكان « ياما » وأخته « يامي » - Yami - في أساطير الهند الزوج الاول من بنى الانسان . وهما ماثلان من هذه الناحية للتوأمين السماويين في بلاد فارس « ييما » - Yima - « وييمه » - Yimeh - أما « ييما » فيشابه « مترا » أو « مترا » . أما « فارونا » شقيق « مترا » التوأم فهو في الحقيقة يمثل آله الموت حاملا بيده الانشودة أو « الحباله » (١)

أما « ياما » الهندي الذي كان يدعى « سيد الآباء » - Pitripati - فيأخذ مكان « مترا » في فردوس « الاسلاف » بجانب « فارونا » . آله السماء والغور الابعاد . ويجلس تحت شجرة يعزف بتمثارة ، ويحتسى شراب « السوما » - Soma - الذي يحبوا الخلود . ولما وصل أعقاب « ياما » الى الفردوس تقمصوا صوراً نورانية ، رقيقة منزهة عن الاثوان (٢) أما في الميثولوجيا الفارسية فالظاهر أن « ييما » كان يحكم على جماعة من الناس هم من أولاده وأحفاده . لان تقاليد هذه الميثولوجيا تنص على أنه عاش عمراً أطول من عمر آدم . ومن أجل أن يخصهم بصفة البقاء بعد أن كانوا قد خصصوا بصفة الفناء ، يحملهم على أن يأكلوا طعاماً محرماً عليهم ، بعد أن يوكل بهم « الديفاس » - Daevas - أى « الشياطين » Demons : ولكن ماذا كان هذا الطعام المحرم ؟ اذا أردنا أن نبحث في طبيعة هذا الطعام ، فهل لنا أن نصل بين هذه الاسطورة واسطورة اخرى تنص على أن « مترا » جعل الناس فانيين بان أعطاهم طعاماً من دهن « الاوركوه » - Ur - Koh - وهى البقرة البدائية ، التى تنص الاساطير الآرية التى انتحلها المذاهب « الميثاوية » (٣) على أن من جشها ، بعد قتلها ، خالق النوع البشرى لأول مرة ؟ (٤)

(١) راجع قسم السابها بارفا Sabha Parva في المهابهاراتا ترجمة روى ص ٢٩

(٢) راجع كتاب الميثولوجيا والاساطير الهندية ص ٣٨ - ٤٢ ،

(٣) نسبة الى مترا .

(٤) راجع كتاب الأستاذ مولتون . Prof. Moulton .

وعوقب «يما» لأنه تطاع الى الخلود و حاول أن يكون خالدا هو والنوع
البشرى ، خاضعا في ما تطاع اليه الى وحي قوة سفلية ، ولم ينتظر حلول العصر
السعيد الذى كان سيظهر فيه « آهورا » - Ahura - . أما الاستاذ «مولتون»
فلا يخفى شكه في أن هذه الرواية ربما تمت بصلة الى أصل بابلي .
كذلك تجد أن «يما» كأوت نابشتم البابلي ، كان بمن فسروا أسرار الخليقة
فقد خصه «آهورا» كبير الآلهة بان يكون حفيظه وعرافه وحارسه على الخليقة .
ولم يمض على خلق الخلق ثلاثمائة سنة حتى غصت الارض بما حملت من
مخلوقات بشرية وغير بشرية حتي لم تجد المخلوقات لكثرتها مكانا
تأوى اليه . (١)

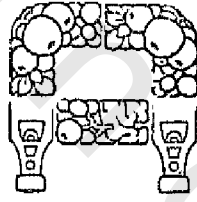
بعد ذلك أصاب الارض سهم ذهبي ارتشق في أحد جوانبها فشقها
وعند ذلك بنى «يما» ملجأ ليلجأ اليه النوع البشرى والحيوانات الداجنة في
خلال شتاء سوف يشتد برده وتعصف رياحه . أما الاستاذ مولتون فهو قن
بان هذه الصورة الميثولوجية تغرى الباحث كل اغراء بان يعترف بان فيها
أثرا واضحا من أسطورة الطوفان البابلية . وكذلك تقع في الميثولوجيا الجرمانية
على «شتاء مهلك» . فقد تساءل «أوديني» فى احدي قصائده المعروفة فى إيسلاندا
«أى المخلوقات سوف يعيش عندما يخيم الشتاء القارس الطويل على أهل الارض»؟

الى هنا نكتفي بايراد ما استطعنا الوقوف عليه من مادة للمقارنات بين
الروايات التى تناقلتها الشعوب البشرية جيلا بعد جيل .

-
- (1) Then the earth became abounding,
Full of flocks and full of cattle,
Full of men, of birds, dogs likewise,
Full of fires all bright and blazing,
Nor did men, flocks, herds of cattle,
Longer find them places in it.

عن ترجمة جاكسون

أما ما أردنا أن نصل اليه من بحثنا هذا ، فلا يتعدي استجماع مادة واسعة حول موضوع بعينه . وليس من حقنا أن نصرف القراء عن التفكير فيها برأى نبديه ، ندافع عنه وننتفي غيره من الآراء الكثيرة التي تحوم حول هذا الموضوع . وهذه خطة سوف نساكم فيها سننشر من مثل هذه الأبحاث . أما اهداؤنا هذه الرسالة الى « أحرار الفكر » فلا أنهم أكثر الناس قدرة على النظر في الموضوع نظرة بعيدة عن تعصب الدين ، و افراط اللاأدرية .



الشفق البهري
للكثوري
شعر، ونقد، وآداب عام